القطوف الدانية
بشرح الجامعة العرفانية

تأليف
العلامة القاضي سيدي
أحمد سكيرج الأنصاري الخزرجي

إعداد
ذ محمد الراضي كنون
الحسني الإدريسي

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

القطوف الدانية

بشرح الجامعة العرفانية

لخديم

الحضرة الأحمدية المحمدية

أحمد بن الحاج العياشي

سكيرج

أمنه الله

نحمد الله حمدا كثيرا مباركا فيه، لا أحصي ثناء عليه بكل ما أبديه أو أخفيه، على أني لو ملأت كل الطروس بالشكر على انعامه فاني لا أستوفيه. وصلى الله على الواسطة في كل ما وصل الينا، أو سيصل من النعم دنيا وأخرى، عين الرحمة الربانية، المتفجر منها المنابع العرفانية، الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، المتحقق بالعبودية التي فيها ارتقى الى قاب قوسين أو أدنى، فكان ولم يزل لله عبدا نبيا، سيدنا محمد بن عبد الله، عليه سلام الله، وعلى آله عموما وخصوصا ورضي عنهم.

أما بعد: فان لله سبحانه خزائن فضل لا تحصى، وبيده مفاتيحها، يمنح منها ما شاء بما شاء لمن شاء من غير تحجير عليه في شيء، والله ذو الفضل العظيم. فمن استعظم ما وهبه لعبد من عباده فقد استنقص ما عند الله من خير، وما عند الله لا يحصر بحد أو استقصاء، فما تحدث به أهل الله مما خصهم الله به من المزايا والمناقب والفضائل ونحو ذلك من الكرامات، والاكرامات والمكارم والمقامات، فهو من هذا القبيل، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وفي تحدثهم — رضي الله عنهم — بذلك مقاصد لهم تدق عن أفهام القاصرين، وتضيق بها عبارة المعبرين، وأوضحها قيامهم بالامتثال لأوامر الحق، لاقتفائهم لسيد الخلق، المخاطب بقوله تعالى (وأما بنعمة ربك فحدث) فقام كل واحد منهم مقامه بما شرح الله به صدره، فهم بمنن الحق متحدثون، وبشكر نعمه قائمون، ومن اتهمهم في شيء من ذلك فقد تجرأ على حضرة أهل الله، بما ليس له به من علم، ولم يكن منه ذلك الا لسوء الظن، وان بعض الظن اثم، فلا جرم أن المجرم هو من لم يطلع على ما في صدر المتحدث بالنعم، وألصق بجانبه ما هو بريء منه عند الحق فيما به حكم، في كل ما

ما نسبه اليه ، أو نسبه الغير اليه جهلا أو تعمدا ، فان ميدان التأويلات عن الاكفار بالمبادرة الى الانكار فسيح المجال ، والتسليم أولا أولى بمن يريد السلامة لنفسه ممن أحاط بما ورد عن المشرع الأعظم ، صلوات الله وسلامه عليه ، فأحرى بمن ليس له من العلم الا الرسم ، وقصر عن العمل بما علم ، أو عمل لحرف من حروف الأغراض النفسانية ، وقليل ممن أخلص في أعماله من غير المعصومين ، أو ورثتهم عند ما يزن عمله بنفسه أن انفرد بمحاسبتها ، ليكون بعطله للحق شاكرا ، وقليل من عباده الشكور . والسعيد من هؤلاء من اشتغل بنفسه عن اقتحام لجة الخوض في أعراض من انتسب للحق ، أو رجع بعد امتحان القطيعة بما تراءى له أولا مما يخالف ما يراه مما حصل عليه من رسم العلم ، فقام بالانكار لما خالف رأيه ، ثم رأى الحق مع أهل الله فرجع عن انكاره ، والرجوع الى الحق حق ، فكان من الموفقين الذين صدقوا الله فيما قاموا به أولا وأخيرا . وقد جرت عادة الحق في عباده أن لا يتبين الحق الا لمن أخلص في قيامه للمناضلة عنه بصدق انتقاده ، ولا يوفق للرجوع للحق الا لمن صدق الله في انكار غير الحق في اعتقاده . ولهذا نرى كثيرا من أعيان الأعلام من السلف والخلف دخلوا في حزب الصوفيه بعد نفورهم وتنفيرهم عنهم ، وانقادوا بحبل الحب الخالص فيهم بعد بغض بعضهم لبعضهم ، ان لم نقل لكلهم ، فتقدموا للأمام بعد أن وقفوا وراءهم ينظرون يحملقون ويحوقلون ، ولله في خلقه شئون ، فلقد شاهدنا في زماننا هذا قوما نقضوا حبلهم الذى انبرم أولا على حب أهل الله ، لما بلغوا اليه من العلم في زعمهم ، وزعم من كبر شأنهم بين أعينهم ، وياليتهم وقفوا مع هذا الحد ، ولكن تعدوا الحدود ، برفض ما كان عليه الآباء والجدود ، ونسبوا الأحياء والأموات للضلال ، وزعموا أن الحق ما هم عليه من الانكار ، وما قصروا في التضليل والاكفار . نسأل الله أن يهديهم على أنفسهم ان قصدوا نصر الحق بما أنكروه ، ووفقهم للتوبة من استحلال عرض من وقعوا فيه وأكفروه ، فان أشنع الانكار ما كان بالاكفار ، فلا تكفير للاثم المترتب عليه الا التوبة والاستغفار ، مع الرجوع عن الانكار . وشاهدنا قوما رجعوا للحق منهم فصاروا في صف المدافعين عن حمى أهل الله بما وفقهم الله اليه ، فاقتدى بهم من دعي للحق فأجاب ، فصاروا قدوة خير يقتدى بهم في سلوك مسالك الهداية ، وأخص بالذكر من المفتوح عليهم في زماننا محيي ما اندثر من المعارف والعلوم ، ومفيد الخصوص والعموم ، رفيع المقدار ، وان نأت به الديار ، في نظر ذوى التسليم وذوى الانكار ، سيدنا ومولانا عبد الحفيظ سلطان المغرب سابقا ، زاده الله بسطة في العلم والجسم ، وأخذ بيده في المهم وغير المهم ، آمين ، فقد كان متقيدا بالعهد الأحمدى التجاني في مبادئ أمره ، ولما ارتوى من العلوم الرسمية صدره ، وارتقى في الفنون الظاهرية

نوره

قدره، تنكب عن الطريقة، وسلك من مجاز الشريعة حتى وقف على عين الحقيقة. ولقد كان صنف تآليف لم يقصر فيها من الانكار والانتقاد على أشياء مثلها، يحاكي ما ينسب للطريقة التجانية، ومن تمسكوا منها بحبل الاعتقاد، قاصدا بذلك الذب عن حمى الشريعة الحنيفية، والنصح لنفسه ولغيره بالاعراض عن الأمور المحدثة في نظره في طريق الصوفية، وسل من سيوف القطيعة حساما، ولازم ذلك أياما، ولما كان ذهبه الخالص لا يستحيل نحاسا، وسعادة طالعه لا يتحول نحسا، لتضلعه بالعلم الصحيح، والدين الصحيح، والنسب الصحيح، والعقل الصحيح، ولا حظته العناية بعيونها في دينه، ظفر من الطريقة التجانية المحمدية بصونها، ورجع اليها قرير العين، نقي الصدر من كل ران وغين، مخاطبا الشيخ التجاني رضي الله عنه بقوله من قصيدة:

واني وان كنت المسيء الذى اعتدى وحارب جهرا ها أنا اليوم طائع

فأيده الحق بروح منه، فروى من أسرار الطريقة ما صار يروى عنه، وأصبح ناشرا لعلمها بين الاعلام، وناصرا فيها الحق الذى لا يضام، وألف تآليف عديدة في توضيح الحق لطلاب الحق فيها، وألف المدافعة عنها بما يرغم أنوف مبغضي الطريق ومقتفيها، فجاء بحسنات متضاعفة، وان الحسنات يذهبن السيئات السالفة. وقد أطلعني - أبقى الله حرمته - على أرجوزته المعنونة (بالجامعة العرفانية، الوافية بشروط وجل فضائل أهل الطريقة التجانية) فألفيتها طبق اسمها، جامعة للأسرار، جامعة للأنوار، جامعة لما يكفي المريد من فقه الطريقة، ومعرفة رجالها بين ذوى الحقيقة، موفية بالمطلوب فوق المرغوب، ولله دره فيما جمعه في هذه الجامعة، فهي قرة أعين المريدين، والغنيمة المقدمة لهم من أفاضل السلاطين، الهادين المهتدين.

وقد سنح لي أن أصرف من أوقاتي النفيسة وقتا أخدمها فيه بشرح يزيدها ابتهاجا، بل يقتبس من أنوارها للاخوان سراجا. وهي وان كانت لسلاسة ألفاظها، ووضوح معانيها، بما لا يحتاج معه الى شرح، فان زيادة البيان، مما يفيد الاخوان، وعسى أن ندخل معه في خدمة جناب المصطفى صلى الله عليه وسلم في استنهاض الهمم، بالقبض على حبل طريقته التي لقنها مشافهة لسيدنا القطب التجاني رضي الله عنه فينتفع الناس بها، لكونها برزت من خزائن الفضل الذى لا ينفد، ولا يكيف لأحد. ولم تشتمل الا على ما يقرب من الحق، بشاهد الحق، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل. وسميته (بالقطوف الدانية، بشرح الجامعة العرفانية) والله يحقق الرجاء بالنفع بالمشروح والشرح، ويمنحنا بكمال الربح، وعظيم الفتح، والتوفيق لما فيه سعادة الداربن، فانه ربنا ورب كل شيء، لا رب لنا سواه. قال الناظم أبقى الله حرمته:

بسم

بسم الله الرحمن الرحيم

قد أفرد جماعة من العلماء الكلام على البسملة وما يتعلق بها بالتأليف، فمنهم من أطال النفس في أنواع العلوم المستنبطة منها والمنوطة بها على حسب ذوقه وما قدر له من المعرفة. ومنهم من اقتصر على علم ومن خاض فيه بفلكه المشحون، فأبدى من أسرارها ما فاق الدر المكنون، والجوهر المصون. ولقد كتبت في هذا الموضوع نحو كراستين في تويلف سميته (مشارب أهل الاختصاص، من بحر البسملة بين الخواص) وتكلمت فيه على مشارب العامة والخاصة من معين البسملة، مع تويلف آخر سميته (اذهاب المعضلة، بتراجم نحوية مستنبطة من البسملة) والى الآن لم يتم تنقيحهما، أتمهما الله بالقبول. ولنكتف هنا بما ينبغي تنبيه المريد التجاني عليه، لمناسبة موضوع هذا النظم المشروح.

وليعلم أولا أن فلاح المريد في متابعة شيخه في عمله واعتقاده، وهو في ذلك على حسب ما تمكن فيه من قابليته واستعداده، في سلوكه للتحصيل على مراده، فان من المريدين من يغضي الشيوخ عن أحواله، ويتساهلون معه فيما يصدر منه من التراخي في أموره، ويكتفون منه بأداء المفروضات كيفما تأتت له، ولا يضيقون عليه رفقا به وتأليفا له وايلافا، الا اذا صدر منه ما لا يحل السكوت عنه من تعلقات الدين من نحو مأمور به، أو منهي عنه. ومنهم من يراعونه في أحواله ولا يغضون الطرف عنه، ولا يسامحونه في أدنى تراخ في القيام بنوافل الخيرات، فأحرى الواجبات والمنهيات، بل وفي بعض المباحات. ومنهم من يهددونه بحسب القرب منهم في المكانة بما يقتضيه الحال، بالعمل بجميع ما عملوا به حتى بالتقيد بمذهبهم الذى سلكوه أو انتحلوه مذهبا في قول أو فعل أو معتقد. فيكون صاحب هذا المقام على حسب ترقيه فيه في خوف دائم، من الوقوع في مخالفة شيخه في جميع أموره الدنيوية والدينية، ويخشى من مرتبة شيخه أكثر من غيره باطنا، وهو في ذلك بقدر ما له من سلب الارادة وغيرها، يتفاوت كل قسم منهم في حد ذاته في ترقيات مختلفة، أو تنزلات عرفانية، بواسطة الشيخ أو نائبه في أى طريق كان. وهذه الأقسام كلها عمل عليها في طريقة الشيخ التجاني رضي الله عنه، غير أن السواد الأعظم من المريدين فيها جلهم من قبيل القسم الأول، فلا يضيق عليهم بالخروج عن المذهب الذى هم متقيدون به من المذاهب الاربعة أو غيرها، وانما المدار فيها على التزام شروط الطريقة المقررة، وليس الخروج من مذهب مريد الدخول فيها لمذهب الشيخ ـ قدس سره ـ بلازم فيها. فالمريد الشافعي مثلا لا يشترط عليه الخروج من مذهبه لمذهب الشيخ الذى نشأ فيه الشيخ ولازمه قيد حياته من المذهب المالكي، أو لما خالف فيه الامام من ملازمته لقراءة البسملة في الفريضة ونحو ذلك،

وانما

وانما يكفي المريد التزام العهد بالقيام على ساق الجد بأداء أوراده وما هو من قبيل ذلك مما هو منوط بارشاده. ثم اعلم ثانيا أن سيدنا الشيخ رضي الله عنه قد كان يبسمل في الفريضة، لا على أنها من تمام الفاتحة، بحيث لا تصح الصلاة الا بقراءتها معها، وانما ذلك منه اغتناما للثواب الوارد فيها، مع اعتقاد أنها غير مكروهة في الصلاة سرا وجهرا، وفي غير الصلاة أيضا. وقد كان رضي الله عنه يقول: عمرى ما نترك البسملة متصلة بالفاتحة لا في الصلاة ولا في غيرها للحديث الوارد في فضلها، المؤكد باليمين، وكان يقول ـ قدس سره ـ ما معناه: لو علمت صلاة فاتتني قراءة البسملة فيها لأعدتها، وذلك حرصا منه على اغتنام الفضيلة كلما بلغته وكيفما تأتت له، ويرشد رضي الله عنه الناس بالفعل ليقتدى به المريد، ليفوز بالخير المزيد، ولم يبال رضي الله عنه بمن أنكر عليه في ذلك من أهل زمانه في قراءتها جهرا في صلواته، لاعتقاده عدم كراهتها، ولكونه مجتهدا في مذهبه، مع نشأته من أول أمره على المذهب المالكي. وقد وقع لبعض العلماء ممن أخذوا عنه الطريقة، وهو الشريف مولاى الزكي المدغرى العلوى أنه جاء الى الشيخ ـ قدس سره ـ بعد أن طالع جملة من كتب المالكية في المسألة، وأتى بكراريس من شراح المختصر وغيره ممن تكلم على البسملة في الصلاة الفريضة وغيرها، فلما جلس بين يدى الشيخ رضي الله عنه، ومعه تلك الكراريس في محفظته شرع في مذاكرته مع الشيخ فيها، وقال للشيخ: يا سيدى: ان مشهور المذهب الكراهة، فماذا تقول؟ فقال له الشيخ رضي الله عنه: ان شراح المختصر وغيره بسطوا الكلام في هذه المسألة، فقال فلان من شراحه: كذا، وفلان: كذا، وقال فلان: كذا، حتى ذكر له جميع ما معه من الكراريس باللفظ، وبقي مولاى الزكي المذكور متعجبا من شأن الشيخ وما ذكره له مما حمله معه من تلك الكراريس، وبعد أن تحصل لديه أن مشهور المذهب المالكي هو الكراهة بتقرير الشيخ ـ قدس سره ـ بقي متشوفا لسبب عدول الشيخ عن المشهور، فاستفهمه عن ذلك، فقال له الشيخ رضي الله عنه: (يحرق أميمتك يا مولاى الزكي) أننا خالفت فيها مالكا على رغم أنفك، فتبين له مقصود الشيخ بذلك، وأعرض عن طلب مستند مخالفته، وسيأتي زيادة بسط الكلام في هذه المسألة لدى قول الناظم، أبقى الله حرمته:

وبسملن لفضلها المؤكد وصل بميم لفظ حمد تحمد

ثم قال:

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

أعلم أن مذهب الشيخ التجاني رضي الله عنه في معنى صلاة الله على النبي صلى الله عليه وسلم هو الوقف، لأنها سر بين الله وبين نبيه صلى الله عليه وسلم، لا اطلاع لأحد على حقيقتها، وان حام حول المعنى من قال

في

في سر الامر بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم : طلب زيادة التشريف والتعظيم له صلى الله عليه وسلم . ثم ان الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم لها خصائص ، فهي تقوم مقام شيخ التربية للمواظب عليها في الأخذ بيده ، الى بلوغ مقصده ، ويتوصل بها في أقرب وقت من حضرة القرب من الحق ، ما لم يتأت للمريد السالب لارادته لشيخ التربية الذى هو كفيله ، ومراعيه في خلوته وجلوته . وغالب المواظبين عليها يحصل لهم الفتح هجوميا بالاجتماع بسيد الوجود صلى الله عليه وسلم في مشاهد لا يشاهدها إلا أكابر المفتوح عليهم من أهل الله . ومما امتازت به الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم أنها لا تؤخذ في التباعات ، بمعنى أن العاصي المطالب بالحقوق اذا أفلس عند الحساب بأخذ جميع حسناته ، فانها لا تؤخذ حسناتها ، بل يؤخذ من سيئات مطالبيه بحقوقهم وتوضع في كفته ، حتى يستوفي منه كل ذى حق حقه ، فتأتي الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم التي صلى بها عليه وتوضع في ميزانه فلا يزنها شيء ، فهناك تقر عين المصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويرى نتيجتها ، وهي من العمل المقبول قطعا ، طبق ما نص عليه من يعتد بقوله من علماء الأعلام ، وقبولها علامة على سعادة المصلي عليه صلى الله عليه وسلم . ومن خصائصها أنها لا يعمل فيها الرياء والسمعة ما يعملان في غيرها من أنواع القربات . فالمشتغل بها ، ولو كان مرائيا أو مسمعا بها ، موعود بثوابها ، وهو صلاة الله عليه عشر مرات فيمن صلى على النبي صلى الله عليه وسلم مرة واحدة . قال ابن عطاء الله رضي الله عنه : من صلى الله عليه مرة واحدة كفاه هم الدنيا والآخرة ، فكيف بمن عليه عشرا في مقابلة مرة واحدة . وما قاله ابن عطاء الله هذا في حق من فرضنا أنه لم يصل عليه الا مرة واحدة في عمره ، فكيف يكون الحال في حق من استغرق الأوقات في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا بد أن يصدر منه الاخلاص في واحدة مما قام به من ذلك العدد ، على القول بأنه لا بد فيها من ترك الرياء والسمعة ، لكون المرائي والمسمع لا يعد من المتقين . وأما على القول بكون المصلي على النبي صلى الله عليه وسلم تقبل صلاته عليه مطلقا ، فذلك فضل مقطوع به في سعادته الأبدية ، وهذا في مطلق الصلوات . وهناك صيغ من الصلوات عليه صلى الله عليه وسلم ذات فضل خاص ، في ضمن الواحدة عدد كبير من صلوات الحق على المصلي بها ، ولا ينكر ذلك الفضل الا من كان من غير أهله ، مثل صلاة الفاتح لما أغلق ، ونحوها من صيغ الصلوات الغير الواردة عن الشارع زمن التشريع . أما الصلاة الابراهيمية الوارد لفظها عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي في احدى الروايات (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل ابراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل ابراهيم انك حميد مجيد) فهي ذات أنوار مشعشعة ، وأسرار نرتفعة ، وتكفي

وتكفي صيغتها في تأدية فرضية الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم دون غيرها من الصيغ في نظر بعض العارفين، فلا بد أن تكون الصلاة بها مرة في العمر لا بغيرها، وقد اختصت بهذه الخصوصية لورودها عن المشرع المعظم صلى الله عليه وسلم في بساط التعليم، بكيفية الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم حين قال الصحابة رضوان الله عليهم: أما السلام عليك فقد عرفناه يا رسول الله، فكيف نصلي عليك؟ فقال صلى الله عليه وسلم: قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، الى آخر الصيغة الشريفة. ثم الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم بغير هذه الصيغة لا مانع منها، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يقل لهم: ولا تصلوا عليّ بغيرها من الصيغ. وقد كره المالكية افراد الصلاة عن السلام، ولا شك أنه اذا أضيف الى صيغة الصلاة الابراهيمية، فانه يخرجها عن الصيغة المشروعة في نظر من يمنع الصلاة عليه بالصيغ المؤلفة، لادعائه كونها من البدع، فان الشيء مع غيره ليس كهو وحده، والحق أنه لا مانع من ذلك لعدم ورود المنع عن المشرع صلى الله عليه وسلم، فلا ينبغي الطعن فيما ألفه الشيوخ رضي الله عنهم من الصيغ، مثل الصلاة المشيشية والحاتمية، والصلاة الفريدة ونحوها، مما له خاصية منطوية فيها، خاصة بمن له الاذن في ذكرها، ممن كان من أهلها. أما فضل ذلك، وان لم يرد عن المشرع صلى الله عليه وسلم ولا روى الحديث به عنه طبق ما تقضي به الصناعة الحديثية، فان باب التلقي من النبي صلى الله عليه وسلم لا زال مفتوحا في غير التشريع، ولن يزال يتلقى عنه عليه السلام في المرائي يقظة ومناما، ولا ينكر ذلك الا المتعصب بغير الحق، مع ورود الأحاديث الصحيحة بالمبشرات. وهذا البساط يحتاج فيه الى بسط كلام مقنع للمعتقد، ومقمع للمنتقد، ربما نوفيه حقه في غير هذا المقام، والله الموفق. وقد اكتفى الناظم أمنه الله هنا بالصلاة على الآل، بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يصرح بالصحابة لدخولهم في مدلول الآل، فانه يعمهم في بعض الاطلاقات، وان كان الذهن لا ينصرف عند الاطلاق الا لآل بيته — زادهم الله اجلالا — فانهم

آل النبي لهم في نفس نسبتهم فضل وليس له في المجد غايات

والاولياء وان علت مراتبهم في رتبة العبد والسادات سادات

غير أن التنصيص معهم على الصحابة بالذكر مما يدل على كمال الاعتناء بهم، ولهذا أتى الناظم — أبقى الله حرمته — في آخر نظمه بهم جميعا، مع ذكر زوجات النبي صلى الله عليه وسلم مع أنصاره بالتخصيص، اظهارا لمحبته فيهم، فلا يقال: انه لم يصل عليهم هنا، لكون الكتاب يقيد بعضه بعضه، ويراعي فيه طوله وعرضه، ويتمم بنفله فرضه، ثم قال:

باسم الاله البدء في الكلام محتم للفوز بالانعام

ينبغي

ينبغي كتب (باسم الاله) هنا بالهمزة، لأن حذفها من الاسم خاص عند علماء الرسم، اذا ذكر مع اسم الجلالة باضافته اليه. ومعنى (الاله) عند شيخنا التجاني رضي الله عنه هو المعبود بالحق، وبه فسر في الهيللة، كما في الافادة الأحمدية، فانه قال ـ قدس سره ـ: معنى (لا اله الا الله) لا معبود بالحق الا الله. أما قول بعضهم: لا مستغني عن كل ما سواه، ومفتقر اليه كل ما عداه الا الله، فليس بمقصود للشارع صلى الله عليه وسلم، اذ ليس فيه مطلب لعبادة الله، ومراده صلى الله عليه وسلم أن يدعو الناس لعبادة الله تعالى، وقد نبه الناظم هنا على أن الفوز بالانعام محتم لمن ابتدأ كلامه باسم الاله، بمعنى أن من ابتدأ كلامه بذكر الله الخاص الذى هو (بسم الله، أو بذكر الله) مطلقا من نحو (الحمد لله) فانه موعود بالفوز بالانعام عليه بكمال مقصوده، فلا بدّ أن يتم مرامه. وعلى فرض كون الشيء الذى ابتدئ (ببسم الله) لم يتم حسا، فانه يتمّ معنى. وبعبارة أخرى يتحتم على من أراد الفوز بالانعام أن يبدأ كلامه باسم الله، بحيث يكون أول كلامه ذكر الله، سواء كان بالبسملة، أو بالحمدلة ونحوهما، وهو ما يقتضيه مفاد قول الناظم (باسم الاله) وان كان المتبادر من الابتداء بهذا أن يكون قصد به الابتداء الحقيقي الذى هو الابتداء بالبسملة، ولكن لا خصوصية لابتداء الكلام في هذا المقام، فان الفعل كذلك يتحتم الابتداء فيه باسم الله، اذا كان الكلام أو الفعل ذا شأن يهتم به شرعا، كما فسر به حديث (كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أقطع، أو أبتر أو أجذم) حسب روايات وردت باتمام البسملة، وبالاقتصار على (بسم الله) وقد أخرجه الرهاوى في أربعينياته، ونقله كثير من العلماء الذين تكلموا على البسملة. ولم يصح عندى سنده، ولم أره في الكتب المعتمدة في الحديث بعد طول بحث، وحسنه من يقتدى به في التحسين، مع أن سنده واه، ونقله عن غير أهل الحديث فيه ما فيه من غير اشتباه، ولكن معناه صحيح طبق ما جربه غيرنا وجربناه، والعلم به لله. ولم يقل الناظم في الكلام ذى الشأن لكون المقام يخصص، فكأنه يقول: الكلام الكامل وهو ذو الشأن، لا الكلام مطلقا، أو المراد به كلامه، فكأنه يقول: بدء كلامي (باسم الاله محتم) بصيغة اسم الفاعل، أى موجب للفوز بالانعام الذى هو اتمام هذا النظم ونحوه، وقد أتمّ الله قصده، أو يقول: بدء كلامي باسم الاله محتم، بصيغة المبني للمجهول، أى أمرني به الحق للفوز بالانعام. وخص الكلام بالذكر، لأن الأقوال أكثر من الأفعال، ويصح أن يكون هنا حذف الواو والمعطوف، على حد (سرابيل تقيكم الحر) أى والبرد. ثم نقول: ان الفعل آخر المظاهر، فالارادة تابعة للعلم، والأمر لا يكون الا عن ارادة، والقول واسطة بينهما وبين الفعل ~~فعلهه~~، فناسب ابتداء القول بالبسملة قبل ابتداء الفعل بها، والا فالفعل أولى بالابتداء بها أولا، الا أن

أن يقال :الكلام هو من قبيل الاعمال ،يرشد لما أشرنا اليه قوله تعالى (انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون)وهاهنا ملاحظات :

الملاحظة الأولى :بسم الله من العبد بمنزلة (كن)من الحق ، كما قال الحلاج :فهو يتصرف بها خاصة ،وبذكر الله عموما في الكون طبق مراده الذى هو مراد مولاه ،فان العبد الذى يقوم مقام سيده يكون مراده في مراد مولاه ،ولا يطلع على مراد مولاه الا بعد تحققه بمقام العبودية ،واذا تحقق بها فلا يتصرف في شيء الا باذنه ،فاذا أذنه بالتصرف انفعلت له الأكوان ،واذا قال بها للشيء :كن كان ،وربما انكشف عند الحجاب فيرى الأشياء مرسومة في عالم الخيال ،ويتحقق عنده المقضي منها وغير المقضي بعين اليقين ،فلا يدعو الا فيما هو مقضي ولا يدعو في غيره ،وقد يكون محجوبا عن ذلك ولا يوفق للدعاء الا في قضى فيه بالاجابة ،وهذا هو الغالب فيمن عرف الاسم الأعظم ،فانه لا يدعو الا فيما قضى الله باجابته.

وغالب أحوال العارفين بالاسم الأعظم الخوف من الدعاء به لا في أمور الدنيا ولا في أمور الآخرة ،لكونهم على خطر عظيم بالدعاء به ،مهددون بسيف المكر بهم في العاجل قبل الآجل اذا دعوا به في غرض من الأغراض كيفما كان ،لكونه يستجاب لهم في الحين من غير شرط من الشروط ،ثم ينزل بهم ما لا طاقة لهم على تحمله ،ولذلك لا يظفر به الا الصديقون ،ثم بعض الصادقين ،فهم لا يدعون به الا فيما أمروا به ، ويكفيهم ~~لها~~ انفعال الأشياء لهم بعد معرفته بالهمة والحال ،في غالب الأحوال ،من غير أن يتلفظوا به ~~xxxxxx~~، واذا تلفظوا به بالصدق خرت لهم الجبال .ولهذا قال وهب بن الورد ،وكان من الأبدال :لو قال صادق :بسم الله على جبل لزال ،فصادق النية يظفر بقصده طبق نيته . وقد قالوا :كادت الهمم أن تفعل ،وهذا في حق غير المبتدئ للشيء المقصود (بسم الله)فأحرى اذا ابتدأه به ،فانه يتحتم فوزه بالانعام.

الملاحظة الثانية :

ورد في بعض الأحاديث :ما بين بسم الله الرحمن الرحيم وبين الاسم الأعظم الا كما بين سواد العين وبياضها من القرب .وقد اختلف العارفون في المقصود به في هذا الحديث ،فقيل هو نفس البسملة ،ووقع الرمز عليها بكونها قريبة من الاسم الأعظم ،وقيل :انها مشتملة عليه ،فهو اما اسم الجلالة (الله)أو اسم (الرحمن)أو اسم (الرحيم)أو هما معا ، أو هو الثلاثة .وجل العارفين على أنه أولها ،لكونه الاسم الجامع. واشترطوا للاجابة شروطا ،والتحقيق أنه لا يشترط في الاسم الأعظم شرط ،وبذلك امتاز عن غيره من سائر الأسماء ،فان الأسماء كلها يستجاب بها مع الشرط ،وهو يجاب الدعاء به من غير شرط ،لأنه اذا دعي الحق به أجاب ،واذا سئل به أعطى .وفيه أقوال كانت السبب في عدم التيقن

التيقن به، وعدم الجزم به مانع من الاجابة. وقد جرت عادة الله في الأسرار أن تدافع عن أنفسها، بتشوف الظاهر بها الى غيرها، بما يداخله من الشك فيما ظفر به منها، فهو غير متيقن به، فهو كالمهين للمعظم فلا ينتفع به، ويتنزل على مثله من أمثال العامة (من ملك شيئا أهانه) ولا يهين الشخص الا ما لا اعتقاد له فيه، ولا انتفاع له بما لا اعتقاد له فيه.

الملاحظة الثالثة

كثير من الناس كثر منهم التشوف للتحصيل على الاسم الأعظم، ويبذلون النفس النفيس في تلقيه عمن يدعون معرفته، أو يتوهمون، بل يظنون أنهم على بصيرة منه، مع أن عارفه لا يمكنه أن يبوح به لأحد. وعلى فرض افشاء سره، فانه يجتهد بما أمكنه من ابداء أنواع التشكيكات فيه، ولسان الحال منه ينشد دائما في سره قول البثح الكاتم:

ومستخبر عن سر ليلى رددته بعمياء عن ليلى بكل يقين
يقولون خبرنا فأنت أمينها وما أنا ان خبرتهم بأمين

واذا كان العارف به لا يذكره لغرض، وذلك أول شروط تلقيه، فكيف يظفر به ذوو الاغراض، وقد يظفر به الصادق في الطلب فيتحقق به، غير أنه لا يتأتى له العثور على صيغته الخاصة به، أو كيفية النطق به الا في حق بعض الخاصة ممن صدقوا الله في الكف عن الدعاء به، ووقفوا عند حد شرطه، وقنعوا بمعرفة حروفه عن التصرف به، وقليل ما هم.

الملاحظة الرابعة

ان شجرة الباء قد استظل تحتها العارفون بما انطوت عليه من الأسرار، وما تشير اليه من الحقائق المشعشعة الأنوار، فهم ساكنون تحت مجارى الأقدار، وفهموا عن الله بها ما فهموه من مخاطبتهم في حضرتها بما تلقوه من الالهام، حيث يقول لهم الحق: (بي كان ما كان، وبي يكون ما يكون) فهم يرون المكونات كلها قائمة بالحق، على قدر تفاوتهم في المعرفة به، فكان لهم في ذلك مشارب وأذواق، نشأ عنها أحوال لا تخرج بهم عن حضرة العبودية. فهم بالتواضع للحق وللخلق متشبهون بالباء في الخفض والانكسار. ومنهم من تمسك بحبل التوكل فترك الأسباب، وهذا مسلك الجذب. ومنهم من تحرك كتحركها، تحققا منه بأنه لا يبتدأ بساكن فتحرك باستعمال الاسباب، وهو مسلك السالكين على المنهج الشرعي، ولهم أحوال في بعض الاحيان يسلك بها مسلك المجذوبين. وقد تذكرت هنا أبياتا كنت قلتها لما عثرت على هذين المسلكين، وهي:

قالوا: تحرك تنل ما شئت وتحظى وتظفر
فما يصدر الا محرك ليس يضجر
وان سكنت بلا تحريك فلست تصدر
فقلت أبغي خصولا والرزق عندى مقدر

ولكن

ولكـن الحق ،ان تعاطي الأسباب لا ينافي التوكل ،وهو مقام السالكيـن .

الملاحظـة الخامسـة

للبسملـة خواص وأسرار ،من أراد مشاهدة سر منها فليكتبها طبـق ما ورد الأمر بـه في بعض الأخبار .عن معاويـة ـ كما في الشفا ـ أنه كان يكتب بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم ،فقال له :ألـق الدواة ،وحـرف القلم ،وأقـم البـاء ،وفرق السيـن ،ولا تعور الميم ،وحسن الله ،ومـد الرحمـن ،وجـود الرحيـم ؛ونظمتـه في قولي :

يا طالبـا سـر البـسـملـة بها كـشف الكـآبـه
ألـق الدواة وحرف الـقـلم الذى صنـع الكتابـه
وأقـم لحرف البـاء قا متـها بمنـزلـة الخطابـه
ولسينـها فـرق ود و ر ميمها تـلق الاصابـه
حسن جلالتـهـا وللـرحمان مـدّ بـلا غرابـه
جود لديها اسم الرحـيـم اذا أردت بـه ثوابـه
فـالسر في هـذا لمن يبـق بـه حسن الاجابـه

ولقـد كان سيدنا الشيخ رضي الله عنه محافظا على فتح حروف البسملـة اذا كتبها ،يعرف ذلك كل من اطلـع على خطـه ،فهو يبتدئ بها رسائله وذلك محتم للفوز بالانعام ،وفي هذا كفايـة .ثم قال الناظم أبقى الله حرمته :

الحمد لله الذى تفضلا على عبـاده بخير الفضـلا
محمد المبعوث للأنـام لكـي يعم النور بالاسـلام
وتجزم القلوب بالايمان ويسعد المحسن بالاحسان

الحمـد لله في نظـر العالم أبلغ من الحمـد بالله في نظر العارف ،والعالم تـؤيـده الشريعـة ،وهي واضحـة ،والعـارف تـؤيده الحقيقة وهـي غـامضـة .ولخفائها قد يعترض على صاحبها صاحب الشريعـة في بعـض أقواله وأفعاله ،وجل أحواله .وانمـا كان (الحمد لله)في نظر العالم أبـلـغ ، لأنـه أفنى الحامد والمحمود من الخلق ،والعارف لم يفـن شيئا ،الا مـا أفنـاه الحق ،فلذلك كان (الحمـد بالله) أبلغ في نظـره ،فهو يحمد الحـق بحميده ،والخلق بحمد الحق ،فلـه نظـران :نظر للحق ،ونظر للخلق ،وهو أتـم في المعرفـة ،وبه يتضح سر نحو قول سيدنا هارون عليه السلام (فـلا تشمت بـي الأعداء)فهو يرى من الحق ما لا يراه غيره في التجلي الـذى تجلى بـه عليه في أخذ أخيه لرأسـه يجره اليه ،فهو في ذلك الحال مشاهد للخلق ،ومستحضر للحق ،فجمع بين المشهدين بخلاف العالم ،فانـه لا يتمكن من الجمع بين المشهدين ،فيفوتـه من المعرفـة بقدر ما فاتـه من مشـهـد الخلق في تجلي الحق عليه ،ولذلك قدر الرسل ـ عليهم السلام ـ على تحمل أعباء الوساطـة بين الحق وخلقه ،لأنهم يعطون للحق حقه ،وللمخلوق ما استحقـه .ويتفاوت نظر العارفين في هذا المقام على قدر ما قدر لهم مـن المعرفـة

المعرفة بالله ، فقد عطس بعضهم بحضر عارف وقال : الحمد لله ، فقال له : كملها كما قال الله رب العالمين ، فقال العاطس : ومن العالم حتى يذكر مع الله تعالى ؟ فقال له ذلك العارف : الآن ، قله يا أخي ، فان الحادث اذا قورن بالقديم لم يبق له أثر ، فأتمها ، فهذا ملحظ هذا العارف . وفي ملحظ عارف آخر أعلى ، وهو من معنى المشهد الهاروني من الجمع بين مشهد الحق والخلق ، ولا يقدر على هذا الملحظ الا كمّل الورثة المحمديين . وحسبنا أن نقول هنا : ان الحق ما زاد وصفه برب العالمين الا لأسرار أعلى مما ندركه من زيادة الوصف في مقام حمد نفسه ، وأعلى أيضا من كون الحمد المقيد أفضل من المطلق ، لكون المقيد فيه زيادة مدح ، كما هنا ، وفي ضمنه التعرض للانعام وللزيادة ، كما قيل :

اذا أثنى عليك المرء يوما كفاك من تعرضه الثناء

ويكون صلة الموصول الذى هو وصف المحمود من قبيل النعمة التي وقع الحمد عليها ، كما في وقل الناظم ـ أبقى الله حرمته ـ (الذى تفضلا) فالحمد هنا مقيد بهذه الصفة ، وفي ضمنها : اني أؤدى حق هذه النعمة التي هي بفضل الحق بالانعام علينا بسيد الفضلاء بقولي : الحمد لله . وقد ورد في الحديث : (رأس الشكر قول الحمد لله رب العالمين) وهذا يعتبره العارف في كل ما هو من هذا القبيل مثل قوله تعالى (الحمد لله الذى أنزل الكتاب على عبده) في ضمنها (الحمد لله على هذه النعمة التي هي انزال الكتاب علىّ عبده) وكقوله (الحمد لله رب العالمين) فانه يتضمن الاقرار بنعمة تربية الحق للخلق ، فحمد الحق على هذه النعمة . وفي ذلك أسرار لطيفة يذوق حلاوتها من عرفها ، وهذه النعمة التي حمد الناظم عليها الحق ، في نظر العارف من أعظم النعم ، حتى من نعمتي الايجاد والامداد ، ونعمة الايمان والاسعاد ، لأن هذه النعم خاصة بالموجود المنعم عليه بها . وأما نعمة التفضل بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهي عامة لسائر العباد ، وما من نعمة نعمة ، لا نعمة الايجاد ولا ما ذكر معها ، ولا غير ذلك الا وهي على يده جرت ، ومنه للمنعم عليه انجرت ، ورضي الله عن الامام البكرى ، حيث يقول :

ما أرسل الرحمن أو يرسل	من رحمة تصعد أو تنزل
في ملكوت الله أو ملكه	من كل ما يختص أو يشمل
الا وطه المصطفى عبده	نبيه مختاره المرسل
واسطة فيها وأصل لها	يعلم هذا كل من يعقل

ولولا تفضله سبحانه ببعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم للأنام ، لبقي الكون منسدلا عليه حجاب الظلام ، ولكن بفضله ـ جل شأنه ، وعز سلطانه ـ بعثه تفضلا منه على العباد ، ليظهر النور ، وتنشرح الصدور ، فكان ذلك على وفق مراده تعالى . فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو أفضل

أفضل العالمين على الاطلاق ، وخير سائر الفضلاء من ملائكة وأنبياء ورسل وغيرهم من المخلوقين كما وقع عليه من أهل السنة الاتفاق . وفي بعثته للانام أسرار موجبة للحمد ، منها ظهور الاسلام الذى عم نوره الأكوان . ومنها جزم القلوب بالايمان بالله ، بما أجراه الله على يده من الاحسان . ولولا بعثه صلى الله عليه وسلم لبقي النور كامنا خاصا بأفراد أمدهم في ظهر الغيب به ، ولبقي الناس في ظلمة الشرك والشك ، مترددين غير جازمين بالحق . ومنها اسعاد الحق باحسانه للمحسن على احسانه ، فظهر بذلك عظيم امتنانه . والحاصل أن الدين لم يظهر الا ببعثه صلى الله عليه وسلم ، والدين مجموع هذه الثلاثة التي هي : الاسلام والايمان والاحسان ، وهذا كله مستفاد من قول الناظم (لكي يعم النور) فذكر الثلاثة وما أنيط بها . ثم قال :

صلى عليه من له ينمى البقا   ومطلق الغنى متى ما أطلقا

يحتمل أن يكون قوله (متى ما أطلق) ظرفا للصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، بمعنى طلب دوام صلاته عليه . متى ما أطلق مطلق الغنى لمن له ينمى وينسب البقاء ، وذلك مطلق له على الدوام ، فيكون الناظم طلب للنبي صلى الله عليه وسلم من الله صلاته الدائمة . ويحتمل أن يكون معناه طبق ما يتبادر للذهن من أنه متى ما أطلق مطلق الغنى ، ولا ينصرف الا لمن له ينمى البقاء ، وهو الحق سبحانه ، فيستفاد منه طلب دوام الصلاة من كون المصلي عليه باقيا ، وببقائه تدوم صلاته ، لاستحالة انقضاء صلاة الباقي . فصلاة الله على نبيه صلى الله عليه وسلم قديمة ، والقديم الباقي لا نهاية له . وهو هنا من الناظم اخبار ، مراد به الانشاء ، فكأنه يقول : صل يا من له البقاء والغنى المطلق على نبيك ، وهو طلب للواقع ، لأن الله تعالى صلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولا يمكن انشاء الصلاة عليه الا تعبدا وامتثالا للأمر ، ليعود نفعها على المصلي عليه من الخلق . فالصلاة من العبد على النبي صلى الله عليه وسلم تعبد منه للحق ، ولكن كمال تفضل الحق يقضي بعدم حصرها ، فهي وان كانت من الحق لا تزيد ولا تنقص ، فتجلياته لا حصر لها . فطلبها من العبد تقضي له بالزيادة . فطلب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في نظر العارفين هدية من الحق لجنابه صلى الله عليه وسلم ، قد اعترفوا له بها عليه السلام ، ولا يرون لأنفسهم فيها مدخلا سوى مدخل الامتثال وما ضاهاه مما يعد منسوبا لهم من الأعمال ، فلذلك جعلوا صلاتهم كلها له صلى الله عليه وسلم فأثيبوا ثوابا خاصا ، بكفايتهم هم الدارين ، وتحقق محبة الحق لهم بمحبة الرسول لهم محبة خاصة . يدل على ذلك حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه ، فانه قال : قلت : يا رسول الله ، اني أكثر الصلاة عليك ، فكم أجعل لك من صلاتي ؟ قال : ما شئت ، قلت : الربع ؟ قال : ما شئت ، وان زدت فهو خير لك ، قلت : النصف

النصف، قال : ما شئت، وان زدت فهو خير لك، قلت : الثلثين ؟ قال : ما شئت وان زدت فهو خير لك، قلت : يا رسول الله، أفأجعل صلاتي كلها لك ؟ قال : اذن تكفى همك، ويغفر ذنبك) وفي رواية (اذن يكفيك الله همّ دنياك وآخرتك) فقد أرشده عليه السلام الى الاستقلال بالصلاة عليه أكثر من الاشتغال بعبادة أخرى، بل يجعل الصلاة عليه ديدنه ولا يستبدل بها بغيرها من الأذكار ونوافل الخير، وحملها بعضهم على الاشتغال بالدعاء له صلى الله عليه وسلم بأن يقال مثلا : جازى الله عنا سيدنا ومولانا محمدا ما هو أهله. وحمل بعض العارفين ذلك على ثواب الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، فهو عنده منوط بهدية ذلك له عليه السلام. ومذهب شيخنا التجاني ــ قدس سره ــ جواز هدية ثواب الأعمال، خصوصا ثواب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، فهي هبة ثواب يعتاض بها مهديها اليه محبته صلى الله عليه وسلم ومحبة الحق له، وذلك من كمال المقصود فيها من السعي والخير المحمود مما لا يكيف. ثم قال :

للرب أشكر على الاحسان اذ كنت من حملة القرآن

لم يقل : والشكر للرب، كما قال أولا : الحمد لله، اما للتفنن في العبارة، سواء قلنا باتحاد معنى الحمد والشكر، أو اختلفت حقيقتهما عموما وخصوصا اجتمعا أو افترقا. واما لحصر شكره للرب، فشكره الصادر كمه كيف ما ~~كمهو~~ كان فهو للرب، أو لأجل الرب، وذلك مستفاد من تقدم معمول الفعل، فكأنه يقول : شكرى كله للرب، أو لا أشكر الا الرب، وهذا المقال معرب عن تحقق صاحبه بمقام الصديقين، وامامهم في هذا الطحظ أم المومنين الصديقية رضي الله عنها حيث قالت : لا أشكر الا الله، في جواب والدها الخليفة الأعظم في حديث الافك. وفي هذا المقام من التجليات الجلالية والجمالية ما لا يقدر على حمله الا الصديق. ثم ان حضرة اسم الرب بين حضرات الاسماء منها تصدر المعارف الغيبية، والعلوم الوهبية، ولذلك أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بطلب زيادة العلم من ربه بقوله تعالى (وقل رب زدني علما) فالعلم اللدني الغيبي كله صادر عن هذه الحضرة. ألا ترى الى الروح، وهي من الغيب المصون، أنها صادرة عن أمر الرب بمقتضى (قل الروح من أمر ربي) وهي تناسب حضرة الاحسان، فان الاحسان الحقيقي هو أن تعبد الله كأنك تراه، فان لم تكن تراه، فانه يراك، ودون رؤية الحق من الحجب ما لو كشف واحد منها لاضمحل المتجلى عليه في حضرة الجلالة في أقلّ من طرفة عين. وقد يستمد المتجلى له بلطيفة من حضرة الرب عند كشف الحجاب له من مشاهدة ربه، فيحصل اللطف به، فلا يضمحل الا ما واجهته حضرة الجلال. ألا ترى الى سيدنا موسى ــ عليه السلام ــ كيف صعق مع حصول اللطف به في تجلي الرب له، ولو تجلى له باسم الجلالة لاندك كما اندك الجبل. وقد حكى الواقعة الذكر

الذكر الحكيم، فقال فيها تعالى (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا) مع تحققه عليه السلام بالحق، وقيامه في حضرة الاحسان بما لم يقم به الا مثله من الأنبياء، وكمل الورثة المحمديين على الجميع السلام. والمراد بالاحسان في قول الناظم: الانعام بالجود، والاكرام واللطف، والأخذ باليد، ونحو ذلك مما يطلق عليه الاحسان، مما يناسب المقام، كما فسر بذلك قول الله تعالى (هل جزاء الاحسان الا الاحسان. ولما تحقق الناظم باحسان الحق له شرح صدره للتحدث بالنعم التي أسداها الحق اليه، فأعرب عن بعض ذلك حسبما يقتضيه الارث المحمدى، بمقتضى (ألم نشرح لك صدرك) في مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد قوله (وأما بنعمة ربك فحدث) فلا يحدث بالنعم الا من شرح الله صدره، ولهذا تجد كمل العارفين يعربون عما منحهم الله به من المقامات والمناقب والمزايا، مما تضيق به حوصلة من لم يعرف مقاصدهم التي تخفى عمن لم يضرب له بسهم من معارفهم الربانية، فيبادر للانكار، أو رميهم بما هم براء منه. فمن منن الله وفضله على الناظم ما اعترف به في قوله (اذ كنت من حملة القرآن) وتحدثه بذلك من الشكر الموجب للمزيد، فهو يقول: أشكر الرب المحسن لي بجعلي من جملة حملة القرآن، وهذه منقبة وأى منقبة ورد فيها ما سنورد عليك ما نستحضره مما ورد من الفضل باختصار، بعد أن تعرف أن قول الناظم (اذ كنت) يصح جعله تعليلا للشكر على الاحسان، فكأنه يقول: لما كنت من حملة القرآن أشكر للرب على احسانه، لأن مقام حامل هذا السر يقضي عليه بالشكر، وفي ذلك تنبيه لحامل القرآن على الشكر، فيعمل بمقتضى شكره، فان الشكر الحقيقي هو العمل بالقرآن. وقد سنح لي أن أنقل هنا من محاذى الشاطبية لمؤلفه الاستاذ ابن عبد السلام الفاسي كلاما مشحونا بفوائد منوطة بفضل حملة القرآن، اتحافا لمن لم يطلع على هذا التأليف القليل التداول بين الطالبين، قال رحمه الله بعد كلام في فضل القرآن ما نصه:

ومن فضله فضل حملته، اذ به نالوا ما نالوا. روى أبو الدرداء قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقرأ (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) الى آخر الآية، فقال: أما السابق فيدخل الجنة بغير حساب، وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا، ثم يدخل الجنة بفضل رحمة الله عز وجل، وأما الظالم لنفسه، فأولئك يوقفون يوم القيامة موقفا كريها، حتى ينال منهم، ثم يظلهم الله برحمته، فهم الذين قالوا: (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور) قال القاضي أبو بكر الباقلاني في كتاب الانتصار في هذا الخبر من التعظيم لشأن حافظ القرآن، وحسن منقلبه: وان كان ظالما لنفسه، ما لا خفاء به. اهـ. وروى أن عمر بن الخطاب رضوان الله عليه تلا هذه الآية (ثم أورثنا

أورثنا الكتاب الذين أصطفينا من عبادنا) الى آخر الآيـة ،ثم قـال :
سابقكم سابـق ، ومقتصدكم نـاج ، وظالمكم مغفور له اهـ. وأخرج البزار
في مسنده ، وابن ماجـه في سننـه ، و ابو عبيد في فضائل القرآن ، والأهوازى
في الايضاح عن النبي صلى الله عليه وسلم قـال : (ان لله أهليـن من الناس،
قيل : من هم يا رسول الله ؟ قـال : أهل القرآن هم أهل الله وخاصته .)اهـ.
وهذا خرج مخرج المبالغـة في المدح ، لأن الله تعالى منـزه عـن الأهـل
والقرابـة (ما اتخذ الله من ولد) (مـا اتخذ صاحبة ولا ولـدا) الا أنه لما
وفقهم لطاعتـه ، وأهلهم لحفظ كتابـه قربهم من رحمتـه ، وأدخلهم في كنف
ستره ، كفعل الرجل مع أهله وذوى قرابتـه ، ففي ذلك من التشريف والتعظيم
لأهل القرآن ما لا خفـاء بـه ، والله أعلم . فـان قيـل : المراد بالحافـظ
المقيم على اتباع أوامـره ونواهيـه وآدابـه ، قيـل : ان الحفظ يقال للهيئـة
التي بها يثبت ما يـؤدى اليه الفهم . ويقـال لضبط الشيء في النـفـس ،
واطلاقـه في هذين المعنييـن حقيقـة . ويقـال لتفقد الشيء و رعـايتـه
وتعهده ، والقيام عليه ، وهو في هذا المعنى مجاز . فالحـافـظ للقرآن يقال
لمن ضبط حروفـه في نفسـه وأحرزها ، وهو من المعنى الثاني ، وهو حقيقـة ،
وهو المتبادر اليه عند الاطـلاق . ويقـال لمن يراعيـه ، ويقوم على حدوده ، وهو
من المعنى الثالث ، وهو مجاز وغير متبادر اليه عند الاطـلاق . فالحمـل عـلى
الأول أولى . فـان قيـل : الحمل عليه يخرم أصول الدين ، لأنـه يـؤدى الـى
أن يكون من يحفظ سـواد القرآن اليوم خيرا من كثير من الصحابـة الكرام ،
لأن كثيرا منهم مات ولم يحفظـه كله ولم يجمعـه ، ولأنـه جاء في وصـف
الخوارج (يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، أو لا يجاوز تراقيهم) ولأنـه
جاء في الحديث (من عمل بالقرآن فهو من أهلـه ، وان لم يحفظـه ، ومن لـم
يعمل بـه لم يكن من أهلـه وان حفظـه) ولأن الله تعالى علـق الكرم عـلى
التقوى لا على القراءة ، قال تعالى (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وفي الصحيح
(من أكرم الناس ؟ قال : أتقـاهم) فالجـواب بعون الله تعالى أن نقول : ان
الصحابـة ــ رضوان الله عليهم ــ بمعـزل عن هذا الميدان ، لأنهم ــ رضوان
الله عليهم ــ خصهم الله تعالى بصحبة نبيـه صلى الله عليه وسلم ، وبمـزايـا
بركاتـه صلى الله عليه وسلم ، كما في صحاح الأخبار ، فـلا يـشق غبارهم أحد ،
ولا يدانيهم ولا يتمثـل بهم ، ويكفي (لو أنفـق أحدكم مثل أحد ذهبا مـا
بلـغ مـد أحدهم ولا نصيفـه ، على أن المخاطب من يأتي بعدهم لأعـوام
الصحابـة بالنسبة الى فضلائـهم ، على أنـه لا بعد في حمل ذلك عـلى
الأجيال والأعـصار ، فيقـال : حفـاظ كتاب الله من الصحابـة هم خيـر ممن
لم يحفظـه منهم ، وحفاظـه من التابعيـن خير ممن لم يحفظـه منهم ، وممن
تابع التابعين ، وهلـم جـرا . وأمـا مـا ورد في وصف الخوارج فـلا يـرد ،
لأنهم لما تـأولوه على أهوائـهم ، وأخرجوه عن محامله الواجبـة له في الشريعة
كان

كان حفظهم له غير معتبر ،وقراءتهم له بألسنتهم ليست بقراءة ،لأنها لم تدخله الى قلوبهم ،حيث لم يتجاوز حناجرهم وتراقيهم ،ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : (يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية)الحديث وأما العمل ،فان أريد الاحاطة فليست الا للنبي صلى الله عليه وسلم ،والا فكل مسلم ينال منه نصيبا من العمل على قدر ما استعد له ،فلحفاظه من ذلك نصيب ،مع مزية حفظ كلماته والقيام عليها ،وهو عمل على ما سبق .
وأما قوله (ان أكرمكم عند الله أتقاكم)ففيها اسم التفضيل ،وهو يعطي المشاركة ،فلكل مسلم تقوى ،وان لم تكن الا للشرك ،ولكل مسلم كرم ،وأتم المسلمين كرما أمسهم تقوى ،والصحابة — رضوان الله عليهم — بمعزل عن هذا ،فانهم بالفضيلة التي حازوها أمة برأسهم ،والله أعلم .ثم ان حملناه على المعنى الثاني ،فهو لا يتأتى الا بعد القطع ،فانه الكتاب الذى يؤمر المكلف باتباعه أمرا ونهيا وآدابا ،ولا سبيل الى القطع بذلك الا بحفظ كلمه وحروفه بالنقل المتواتر من ألفاظ حفاظه من صدورهم ،واذا كان هكذا ،فيكون حفاظ كلماته داخلين دخولا أوليا بما لا خفاء به .ثم ان القاضي رحمه الله جعل الأقسام الثلاثة في حفاظه ، كما ترى ،وهو أقرب الى حقيقة الوراثة ،اذ هي انتقال مقتنى اليك من غيرك ،من غير عقد ،ولا ما يجرى مجرى العقد ،فهي تتضمن استيلاء على الشيء ،واحتيازا له ،والى حقيقة الكتاب ،لأنه اللفظ المنزل على سيدنا محمد للاعجاز بسورة منه ،المنزل تواترا ،لكن هذا الكتاب لما كان حاملا لعلوم الدين لم تتحقق فيه الوراثة كل التحقق ،لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (نحن معاشر الانبياء لا نورث ،ما تركناه صدقة) والذى تركه النبي صلى الله عليه وسلم هو العلم والدين ،فيكون المراد بالكتاب عليه هو العلم والدين وعليه يكون المراد بالوراثة الاستفادة ،وهذا المعنى لا يخص الحفاظ ،اذ جميع الأمة تصدق عليهم النبي صلى الله عليه وسلم بالعلم والدين ،وجميعهم استفاد منه بحسب استعداده ،ولذلك جعل غير القاضي رحمه الله الأقسام الثلاثة في الأمة كلها ،ولا شك في دخول الحفاظ في الأقسام الثلاثة على هذا دخولا أولا ،ثم لا يبعد امتيازهم عن بقية الأمة بما اختصوا به من حفظ كلماته ،وهو بين لا غبار عليه ، والله تعالى أعلم .وعن عبد الملك بن عمير ،كان يقال :أبقى الناس عقولا قراء القرآن ،اهـ .وروى الضحاك عن عبد الله بن عباس قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أشرف أمتي هم حملة القرآن ،وأهل الليل)وعن الضحاك رحمه الله أيضا : (ثلاثة لا يكترثون للحساب ولا تفزعهم الصيحة ، ولا يحزنهم الفزع الأكبر :حامل القرآن المؤديه الى الله تعالى بما فيه ،يقدم على الله عز وجل شريفا سيدا حتى يرافقوا المرسلين ،ومؤذن أذان سبع سنين ،لا يأخذ على أذانه طمعا ،وعبد مملوك أحسن عبادة ربه

ربه عز وجل، ونصح لسيده، أو قال: مواليه) اهـ. وروى عاصم بن ضمرة عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قرأ القرآن ظاهرا أدخله الله الجنة مع عشرة من أهل بيته، كلهم قد استوجبوا النار) اهـ. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله صلى الله عليه وسلم قال: (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذى يقرأه ويتتعتع فيه، وهو عليه شاق، فله أجران) اهـ. وليس المراد أن أجر قراءته وأجر تعبه، وهم الأجران يكون بهما أعلى نصيبا من الماهر، لأن ذلك مع السفرة جمع سافر، وهم الملائكة أو الرسل، فكيف يلتحق به من لم يعتن به كل الاعتناء كي يحفظه، فضلا عن أن يكون أعلى نصيبا منه. والتتعتع: العيّ في الكلام، وآخر الحديث ظاهر في أن المراد بالمهارة حفظ كلمه وحروفه، ولو لم يمهر في تصور معانيه، فلو جمعهما فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) اهـ. وخرج أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن له عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعته يقول: ان القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة كالرجل الشاحب فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك، فيقول: أنا صاحبك الذى أظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلك، ان كل تاجر وراء تجارته، واني اليوم من وراء كل تجارة، قال: فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا فيقولان: بم كسينا هذا؟ فيقال: لهما: بأخذ ولدكما القرآن، ثم يقال له: اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ، هذا كان أو ترتيلا) اهـ. قال القاضي أبو بكر الباقلاني رحمه الله في كتاب الانتصار: الذى يأتي هو ثواب القرآن يتصور بتلك الصورة، أو ملك يبعثه الله لتبشيره وتسكينه، ويسميه قرآنا، مجازا، حيث كان تبشيره وتسكينه من ثواب القراءة. قال: وكذلك ما ورد في البقرة وآل عمران أنهما يأتيان يوم القيامة غمامتان، أو غيابتان، ان الله تعالى يخلق جسمين عظيمين يسميهما قرآنا، لأن تبشيرهما من ثواب قراءة البقرة وآل عمران. قال: فلامعنى لرد ما ورد من هذه الأخبار، في تعظيم شأن حملة القرآن، من طريق ثابت صحيح، اذا احتملت من التأويل ما ذكرنا. اهـ بالمعنى في اختصار هـ. وخرج الترمذى في جامعه وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يجيء صاحب القرآن يوم القيامة، فيقول القرآن: يا رب حله، فيلبس تاج الكرامة، ثم يقول: يا رب زده، فيلبس حلة الكرامة، ثم يقول: يا رب ارض عنه، فيرضى عنه، فيقال له: اقرأ وارقه، ويزاد بكل آية حسنة) اهوخي. وفي سنن أبي داوود عن سهل بن معاذ الجهني عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من قرأ القرآن، وعمل بما فيه، ألبس والداه تاجا يوم القيامة

القيامة ،ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا ،لو كانت فيكم ،فما ظنكم بالذى عمل بهذا) ؟ اه .وانظر هل من العمل اعتقاد حقيته ،وان عصى بترك بعض أوامره ونواهيه ،لأن ذلك من عمل القلوب ،وذرة من أعمال القلوب خير من أمثال الجبال من عمل الجوارح ،كما هو منصوص لهم ،ولأ ن العمل به على الاحاطة انما هو لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقط ،أو لبعض خواص أمته (وما قدروا الله حق قدره)وان كان لفظ صاحب في الحديث الذى قبل هذا يعطي ابلاغا في الامعان في النظر ،وملازمة التلاوة ، والعمل بمقتضاه ،لأن أصل المصاحبة أن تكون بالبدن ،فصاحبك من يرافقك ببدنه ،ويوافقك في مرادك ،ويعينك على تحصيله .فهو في الأول الذى يصاحب بالبدن والروح استعارة ،فيكون معناه عليها هو الجامع للقراءة والتدبر والعمل .وأما الثاني وهو الذى يعتقد الحقية ولا يتدبر ولا يعمل ، ولكن يقرؤه غير متدبر ولا عامل ،وانما يتصف به من عمل الجوارح التلاوة فقط ،فلا يصدق عليه اسم الصاحب في هذا المجاز الا على مجاز ،لأنه قد يرافقك ببدنه من لا يوافقك في كل مرادك أو بعضه .وليس من خلال الكرام أن تصدر له حق مرافقته لك ببدنه ،وانحياشه اليك ،معترفا بجلال قدرك ، منطويا على علو منصبك ،فلا يعصيك جاهلا بك ولا مستهزئا ،ولكن اتكالا على حسن معاملتك لرفقائك ،وفضل مسامحتك في حقوقك ،أفيحسن بك أن تهمله فلا تهديه الى السبيل ،ولا تحسن اليه لما اعتقد فيك من الجميل ،احسانا على قدر منصبك ،؟ وتحتال في رده اليك ما أمكنك ،والله سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين ،وأرحم الراحمين ،وأرأف بعبده المومن من الأم بولدها ،وهو أكرم من أن ينعم عليه بحفظ كتابه مع الايمان به ، ثم يهدر تعبه في جمعه ،واشتغاله بدراسته ،وان عصى بترك العمل من كل جهاته ،وهو أكرم من أن يقبل الشفاعة في العاصين الذين استوجبوا النار ،نعم ،ان فعل تهاونا واستحلالا فهو كافر ،ولعله المراد بالفاجر في حديث أبي موسى الاتي ،وان كان الفجور أوسع من الكفر . والله أعلم .وفي البخارى من حديث أبي موسى الأشعرى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ،طعمها طيب ،وريحها طيب ،والذى لا يقرأ القرآن كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها ،ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب ،وطعمها مر ،ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها)وروى البخارى في صحيحه عن عثمان ابن عفان رضي الله عنه ،ولفظه قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خيركم من تعلم القرآن وعلمه)وكان أبو عبد الرحمن السلمي التابعي الجليل لما يروى هذا الحديث عن عثمان يقول :هذا الذى أقعدني مقعدى هذا ،يشير الى كونه جالسا في المسجد الجامع بالكوفة يعلم الناس القرآن

القرآن ، ويقرؤه مع جلالة قدره ، وكثرة علمه ، وحاجة الناس الى علمه ، وبقي يقرئ الناس بجامع الكوفة لأكثر من أربعين سنة ، وعليه قرأ الحسن والحسين رضي الله عنهما . ولذلك كان السلف رحمهم الله لا يعدلون بقراءة القرآن شيئا . قيل لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه : انك تقل الصوم ؟ قال : اذا صمت ضعفت عن القرآن ، وتلاوة القرآن أحب الي . وفي جامع الترمذى عن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يقول الله عز وجل : من شغله القرآن عن ذكرى ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : أفضل العبادة قراءة القرآن) اهـ . وفي شعب الايمان للبيهقي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : (أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن) وعن عبد الحميد بن عبد الرحمن xxxxxxxxxx الحماني : سألت سفيان الثورى عن الرجل الذى يغزو أحب اليه أو يقرأ القرآن ؟ فقال : يقرأ القرآن ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال (: خيركم من تعلم القرآن وعلمه) و روت عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قراءة القرآن في صلاة أفضل من قراءة القرآن في غير صلاة ، وقراءة القرآن في غير صلاة أفضل من التسبيح والتكبير ، والتسبيح والتكبير أفضل من الصدقة ، والصدقة أفضل من الصوم ، والصوم جنة من النار) اهـ . قال القاضي أبو بكر الباقلاني رحمه الله تعالى في كتاب الانتصار : وهذا تفضيل من النبي صلى الله عليه وسلم لقراءة القرآن على سائر الاعمال اهـ . وروى عن أحمد بن حنبل رضي الله عنه قال : رأيت رب العزة في المنام فقلت : يا رب ما أفضل ما يتقرب به المتقربون اليك ؟ فقال : كلامي يا أحمد ، قلت : يا رب ، بفهم أو بغير فهم ؟ قال : بفهم أو بغير فهم ، اهـ نص المحاذى المذكور باللفظ ، ونقلناه بطوله لما اشتمل عليه من الفوائد ، التي تعدّ من الفرائد .

وقد سنح لنا أن ننقل هنا من كلام سيدنا الشيخ التجاني رضي الله عنه المنوط بتلاوة القرآن وفضلها ، وتلاوة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، والتفضيل المنوط بالتفضيل بين ذلك ، ولقد قصرت أنظار بعض المتفقهين عن فهم كلامه ـ قدس سره ـ فبادروا للانكار ، و رموا بانتقاداتهم جزافا ، بما لو ألقوا السمع اليه لتحققوا أنهم يهرفون ، بما لا يعرفون ، وقد قلدهم في الاعتراض علي جانب الشيخ رضي الله عنه بما نسبوه اليه جماعة ممن شغفوا بهتك الأعراض ، لأغراض يعلمها الله منهم ، وكفى البعض منهم نظرهم بعين البغض لهذا الجناب ، فما ظفروا سوى بخسران ، وعادوا بحرمان ، هدى الله اخواننا المسلمين لما فيه الصلاح ، واصلاح الاحوال . وقبل نقل كلامه رضي الله عنه أستلفت أنظار المطالع الى كلام الشيخ رضي الله

الله عنه في نفس التلاوة، لا في جوهر اللفظ، فان لفظ القرآن لا يوازيه شيء، ولا يوازن حرفا منه شيء من غيره، ثم انه يقول: لا أفضل من تلاوته لمن عمل بما فيه، وأما غير العامل به، فالأولى في حقه الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بأى صيغة كانت. وهاك نصه بفصه، لترى الحق واضحا، من غير الوجه الذى رآه به المنكرون، فقد قال رضي الله عنه كما في جواهر المعاني: أما تفضيل القرآن على جميع الكلام من الأذكار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وغيره من الكلام فأمر أوضح من الشمس، كما هو معلوم في استقراءات الشرع، وأصوله شهدت به الآثار الصحيحة. وتفضيله من حيثيتين: الحيثية الأولى، كونه كلام الذات المقدسة المتصفة بالعظمة والجلال، فهو في هذه المرتبة لا يوازيه كلام. والحيثية الثانية: ما دل عليه من العلوم والمعارف، ومحاسن الآداب، وطرق الهدى، ومكارم الأخلاق، والاحكام الالهية، والأوصاف العلية، التي لا يتصف بها الا الربانيون، فهو في هذه المرتبة أيضا لا يوازيه كلام في الدلالة على هذه الأمور. ثم ان هذين الحيثيتين، لا يبلغ فضل القرآن فيهما الا عارف بالله، قد انكشفت له بحار الحقائق، فهو أبدا يسبح في لججها. فصاحب هذه المرتبة هو الذى يكون القرآن في حقه أفضل من جميع الأذكار والكلام، لحوزه الفضيلتين، لكونه يسمعه من الذات المقدسة سماعا صريحا، لا في كل وقت، وانما ذلك في استغراقه وفنائه في الله تعالى. والمرتبة الثانية في القرآن دون هذه وهي: من عرف معاني القرآن ظاهرا، وألقى سمعه عند تلاوته، كأنه يسمعه من الله يقصه عليه، ويتلوه عليه، مع وفائه بالحدود، فهذا أيضا لاحق في الفضيلة بالمرتبة الأولى، الا أنه دونها. والمرتبة الثالثة في تلاوة القرآن، رجل لا يعلم شيئا من معانيه ليس له الا سرد حروفه، ولا يعلم ما ذا تدل عليه من العلوم والمعارف، فهذا ان كان مهتديا كسائر الأعاجم الذين لا يعلمون معاني العربية، الا أنه يعتقد أنه كلام الله، ويلقي سمعه عند تلاوته، معتقدا أن الله يتلو عليه تلاوة لا يعلم معناها، فهذا لاحق في الفضل بالمرتبتين، الا أنه منحط عنهما بكثير كثير، بشرط أن يكون مهتديا موفيا بالحدود والواجبات، غير مخل بشيء منها. والمرتبة الرابعة: رجل يتلو القرآن، سواء علم معانيه أو لم يعلم، الا أنه متجرئ على معصية الله، غير متوقف عن شيء منها، فهذا لا يكون القرآن في حقه أفضل، بل كلما ازداد تلاوة ازداد ذنبا، وتعاظم عليه الهلاك، يشهد له قوله سبحانه وتعالى (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ــ الى قوله ــ فلن يهتدوا اذن أبدا) وقوله سبحانه وتعالى (ويل لكل أفاك أثيم ــ الى قوله ــ ولهم عذاب عظيم) وقوله تعالى (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل) الآية. وكل من يحفظ القرآن ولم يقم

بحدوده

بحدوده فقد اتخذه هزؤا ، قال الله تعالى (واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ـ الى قوله ـ ولا تتخذوا آيات الله هزؤا) وقوله صلى الله عليه وسلم : (ما بال أقوام يشرفون المترفين ، ويستخفون بالعابدين ، ويقولون بالقرآن ما وافق هواهم ، وما خالف أهواءهم تركوه ، فعند ذلك يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض) الحديث. وأراد صلى الله عليه وسلم أنه يصدق عليهم الوعيد الذى في الآية ، قال تعالى (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ـ الى قوله ـ أشد العذاب) وقوله صلى الله عليه وسلم : ان من أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه) وقوله سبحانه وتعالى (ومن أعرض عن ذكرى ـ الى قوله ـ وكذلك اليوم تنسى) فمن ترك العمل بالقرآن فقد نسيه ، والوعيد ثابت عليه . فمثل هذا لا يكون القرآن في حقه أفضل من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فأصحاب المراتب الثلاثة الأول القرآن في حقهم أفضل من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وصاحب المرتبة الرابعة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في حقه أفضل من القرآن . وبيان ذلك أنه يزداد من الله تعالى بتلاوة القرآن طردا ولعنا وبعدا ، الا أن يكون صاحب مرتبة الهيبة في الغيب ، مدخرة له في المعرفة بالله العيانية ، فانه ان كان بهذه المشابة ، وحاله في المرتبة الرابعة كما ذكرناه فتمحى جميع ذنوبه في الغيب ، وتكتب جميع تلاوته حسنات ، لأجل المرتبة التي حصلت له من الله بطريق المحبوبية ، فان خلا عن هذه المرتبة فهو عند الله بين أمرين : اما أن يعامله بالعفو في الآخرة ، وعدم المؤخذة بالعذاب على ذنوبه لسبب من الأسباب المعلومة في الغفران ، وهي كثيرة . واما أن يناقشه الحساب في الآخرة ، ثم يقول له : لنؤاخذنك بها ذرة ذرة . فصاحب هذه المرتبة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أفضل له من تلاوة القرآن ، لأن الله يصلي عليه بكل صلاة عشرا عشرا ، وجميع العالم في العالم عشرا عشرا لكل صلاة ، فيفوز بذلك بالسعادة الابدية . فان هذا الوعد من الله محقق الوقوع ، وهذا واقع لكل مطيع وعاص ، فكل من صلى عليه ربه ، وصلت عليه الملائكة ، فهو من أهل السعادة . فصاحب هذا الحال يقع له الهلاك والشقاء بتلاوة القرآن ، وتقع له السعادة والغفران بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فان قلت : الثواب المرتب على تلاوة القرآن ، انما هو للقرآن فقط دون التالي ، وذلك حاصل في تلاوته ، حتى من الفاسق ؟ قلنا : الجواب في هذا الامر محتمل أنه يكتب له من تلاوة القرآن ، لكن يظهر ابطاله من جهة أخرى ، وهو عدم علمه بالقرآن ، فان تلاوة القرآن مع عدم العمل هو المثل الذى ضربه الله تعالى لأهل التوراة فقال : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) ومعلوم أن الحمار لا ينفع له

له في حمل الأسفار على ظهره . وقوله (ثم لم يحملوها) أى لم يعملوا بما فيها ، وقوله سبحانه وتعالى (الذين اتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يومنون به) وحق تلاوته هو العمل بما فيه ، ومن أعرض عنه بعدم العمل فما تلاه حق تلاوته الى آخر ما ذكره سيدنا الشيخ رضي الله عنه بما أبرد الغليل ، وأبرأ العليل ، في هذا الموضوع الذى أفصح عنه بعبارته الواضحة ، وخفيت أنوارها عن أعين المنتقدين الذين حولوها بما وافق هواهم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ممن يرى الحق ويفرغه في قالب الباطل ويتزى بزى العلماء ، وهو أحمق جاهل ، ولله در الناظم ، فقد بلغنا أنه أنشد في حق بعض من كان يحضر مجلس سرد الصحيح بأعتابه الشريفة من العلماء :

العلم في الرجل الحليم كرامة وسفاهة في الأحمق الطياش

فيتنزل هذا البيت على كل من عرف بعض المسائل العلمية ، وتعصب لفهمه فيما بلغه من كلام السادة الصوفية . أما العالم الحليم ، فانه متمسك دائما بحبل التسليم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ثم ان الناظم ـ أبقى الله حرمته ـ بعد تحدثه بالمنة التي منّ الله بها عليه من كونه من حملة القرآن ، تحدث بنعمة أخرى على طريق الشكر ، بأنه يشكر الرب على أن جعله من جملة سادة كرام ، قد هداهم الحق ، لطريق الحق ، باتباع الولي الجليل ، وهو القطب الاكبر ، الختم الأشهر ، شيخنا العارف [illegible] الرباني ، سيدنا ومولانا أحمد التجاني رضي الله عنه وعنك به . وقد جرى الناظم ـ زاده الله معرفة به ـ على منهج أكبر العارفين بالله في التحدث بالنعم مثل القطب الشعراني في كتابه (المنن) وغيره ممن شربوا من عين الصفاء التي لم تتكدر بالحظوظ النفسانية ، فيتحدثون بمناقبهم ومزاياهم ، وما فتح الله به عليهم ، فقالوا : نحن ، ونحن اقتداء بالمصطفى صلى الله عليه وسلم حيث يقول : (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) وقوله : (أنا النبي لا كذب) ونحو هذا مما هو داخل في البرهان الاتي وهو أقوى البراهين في الحجة لمن ثبتت خصوصيته . وقد وصف الناظم اخذى ورد هذه الطريقة الأحمدية بالكرام ، فهم كلهم كرام ، أو بكرام خصوصيين من أهلها ، وهو مقام أفراد منهم من يعرف مقامه بالفتح اللائح عليه ، ومنهم من لا يعرف لعلو مناصبهم ، ورفعة شأنهم ، كما أخبر بذلك الشيخ رضي الله عنه . ولا شك أن أهل هذه الطريقة كرام ، لكونهم مكثرين للصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فهم محبون له صلى الله عليه وسلم ، ومحبوبون لديه ، والبخيل هو من لم يصل عليه . وفي الحديث الشريف عنه عليه السلام قال : (البخيل كل البخيل من ذكرت عنده فلم يصل عليّ) على أن وصف الناظم نفسه بالكرم هو أيضا متحقق فيه بمعنى الجود ، فانه أبقى الله حرمته

قد

قد جاد جودا به قد كان منفردا شرقا وغربا ولم يبال بالمال
ولم يزل باذلا للطال أين غدا طبق الذى اعتاد في حل وترحال
بال

هو البحر من أى النواحي أتيته فلجته المعروف والجود ساحله
ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائله

ولم نقل الا حقا فيما شهدناه، وقد شاهد هذا فيه غيرنا ممن عرفناه، زاد الله في معناه، وبلغه في الدارين متمناه، آمين. ثم قال:

وقد تبعته ببدء أمرى فنصح الغير يزيد الخير
ظننت أن النصح عين الرشد فكان في الارشاد غير القصد

بعد ما تحدث ببعض ما أنعم الله به عليه، اعترف هنا بما يدل على أن انقطاعه عن الطريقة التجانية في مبدأ أمره لم يكن عن نية فاسدة، وانما كان لطلب زيادة خير في طريقة أخرى، نصحه في التقيد بها بعض من اعتقد فيه الخير من شيوخ العصر، فتلقى عنه ورده، وترك الورد التجاني مدة، ظنا منه بأن ما نصحه به يحصل به على المراد طبق ما حصل له فيه من حسن الاعتقاد، الى أن تحقق بأن ذلك النصح لم يجده نفعا في صدوره وورده، ولم يظفر فيه بمقصوده. وقد جرت عادة الله في خلقه أن من كانت نيته خيرا ينال خيرا بمقتضى (ان يعلم الله في قلوبكم خيرا يوتكم خيرا) فلذلك وفق الله الناظم ـ أبقى الله حرمته ـ للرجوع للطريقة التجانية، والتوبة مما صدر منه من ترك أورادها العرفانية، طبق ما سينص عليه، وما حمله على ذلك الا حسن ظنه بتلقي تلك الطريقة التي أقام له أدلة علمية على أنها طبق ما يقوله، فقبلها ولازمها أياما، وأعانه على ذلك ما أشار له بقوله:

وكان مما زاد في اقتحامي لجة بحر اللهو واهتمامي
ما قيل ان النفع للأتباع من المشايخ بالاجتماع

قد تمسك بهذا القول المسكي هنا (بقيل) كثير ممن تصدروا للمشيخة والله يعلم مقاصدهم في ذلك، حتى وقع بين أتباع من مات من الشيوخ ومن لم يجتمع بهم وبين من يستدل بهذا القول شحناء وبغضاء وتقاطع وتدابر، وغير ذلك من التناكر والتنافر، واقتحام البعض على البعض بما أدى الى الخروج عن الحد الى تمكن البغض، وجميع ذلك لا يخلو عن حظوظ نفسانية، مما ينافي سلوك طريق القوم، التي يتعين فيها المحافظة على القلوب، وتوثيق رابطة الأخوة في الله ونحوها مما أكد الشرع على مراعاته، وجاء به الدين الحنيفي، ويقصده كل طرقي وصوفي، بل يقصده كل مسلم محمدى، وقد اتسع الخرق على الراقع على بعض الشيوخ، المتمسكين بهذا القول الذى يكدر صفاء عيش المريد، في سلوك طريق من مضى من الشيوخ، بما ليس عليه من مزيد، بقيامهم للمناضلة بأنفسهم في

في طريقهم التي رصفوها للمارين ، ووصفوها بأنها هي الموافقة للمريدين ، فاتسع المجال للمنكرين ، وقالوا : ما هؤلاء القوم الا قوم يقصدون تفرقة الدين ، وجروا على المحقين من المشايخ والمبطلين ، من قول الله تعالى (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء) فصير هؤلاء المنكرون المتمسكين بالطرق شيعا ، فكان استدلال المنكرين موضوعا في غير محله ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، وان كان عموم اللفظ عند علماء الأصول ، لا يقيد بخصوص سبب التنزيل ، مع أن الطرق كلها المقصود منها السلوك لطريقة واحدة ، وهي ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، واتبعه أصحابه فيه رضي الله عنهم ، فلا يضر المشايخ انفراد كل واحد منهم بمشرب ، وانتحاله لمذهب ، على فرض ذلك منه ، وقصده الحق ، فشاهد الحق ، وهو الدعوة الى الله ، وكلهم متمسكون بحبل (لا اله الا الله ، محمد رسول الله) والا كان جميع المذاهب التي تمسك بها المسلمون من هذا القبيل ، لاختلافهم في غير أصول الدين ، في جل المسائل الفرعية مع أنهم في ذلك على هدى من ربهم ، وان اختلفوا فيها لدى كل من وعى . فلا يقال في أهلها : فرقوا الدين وكانوا شيعا ، فلا جرم اذا قلنا : بأن المنكر مجرم ، جاء بمنكر مظلم . أما المناضل عن طريقة شيخه التي تمسك بحبلها ، فهو قد قام بالمتعين عليه طبق ما يقضي به عليه حبه في شيخه ، فهو معذور من جهة ، معذول من جهات ، لأن الأولى ترك الخوض في مثل ذلك ، خشية قصوره بين يدى المتسور على قصور القوم ، المشيدة على تقوى من الله ورضوان ، أو ليستدل بما يزيد في الطين بلة ، فينتصر عليه في نظر العامة المنكرون ، فيبوء الجميع بالخسران ، اللهم الا اذا سلك المناضل عن حمى شيخه مسلك الأدب في توضيح الحق ، من غير انتصار لحظ النفوس ، للأخذ بيد ضعفاء الخلق في القيام والجلوس ، فأجره على الله . وكفى من سعى في نقض العهد المأخوذ عن الشيوخ اثم النقض ، وسوء الظن بأهل الله ، سيما من ثبتت ديانته من الشيوخ ، وكان في المعرفة بالله من ذوى الرسوخ ، فنقض عهودهم وبال على فاعله ، وفي سوء الظن قيل :

اذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

وفي الحديث خصلتان ، ما فوقهما من الشر شيء : سوء الظن بالله ، وسوء الظن بعباد الله ، وخصلتان ما فوقهما من الخير شيء : حسن الظن بالله ، وحسن الظن بعباد الله) فالتوبة في حق من أراد السلامة لنفسه من الاعتراض على أهل الله والاعراض عنهم متأكدة ، والرجوع الى الحق حق ، لا سيما في حق من رأى الحق حقا ، وعامل الله في ذلك اخلاصا وصدقا ، مثل ما وقع للناظم بلغه الله أمانيه بأمان ، فقد تبين له الحق ، ورجع الى الله باذعان ، حسبما نص عليه بأفصح بيان .

ثم ان الاخذ عن الشيوخ ، اما أن يكون بوساطة أو بدونها باجتماع

بهم

بهم،أو بغير اجتماع قيد حياتهم أو بعدها ،وذلك على وجه التربية المصطلح عليها ،أو على وجه التبرك ،أو على طريق الترقية بالهمة والحال .وفي كون الانتفاع بالميت أكثر من الحي أو العكس أنظار للعلماء، وأقوال للعارفين ،بسطنا القول في ذلك في تويلف سميناه (بطرب الحي ، بكون الاخذ عن الشيخ الميت أولى من الحي)ولا زال الى الآن في مبيضته لم يتم تنقيحه ،أتمه الله بالقبول .وحصل تراجمه في الكلام على التربية بالاصطلاح ،وهل انقطعت أو لا زالت ؟ وعلى التربية بالترقية بالهمة والحال ،وعلى ما يقوم مقام الشيخ الحي في ذلك من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ،وما يخلف الشيخ المربي من ارشاداته القائمة مقام حضوره بنفسه ،والكلام على أنه لا يمكن للشيخ الحي أن يربي جميع مريديه العديدين ،وانما يتأتى ذلك منه في بعض من حضر معه ،وراعاه في خلواته وجلواته ،وليس لروحه اللاصقة بجسده التصرف الذى مكنت منه الروح المجردة من الذات بالموت ،فانه يمكنها أن تزور جميع مريديها ، وان تناءت محلاتهم ،وتفرقت مجامعهم ،واختلفت طباعهم وقابليتهم ، والكلام على الأذكار المأذون فيها ،وأنها تفعل في النفوس أكثر مما تعمله مراقبة الشيخ للمريد ،في احراز الخير المزيد ،مع الكلام على كون المقدمين في الطريق ينزلون منزلة شيخ الطريقة في تلقين ما كان يلقنه قيد حياته من الأذكار والأسرار ،لقيامهم مقامه في التلقين ،وان غال الشيوخ الأحياء بمنزلة المقدمين أيضا للتلقين ،لأن غالبهم ترجع طريقته للشاذلي والقادري ،بل للجنيد وغيرهم ممن تقدم زمانهم على زمان الاحياء من الشيوخ ،فهم بمثابة المقدمين بلا مكابرة .وقليل من الشيخ ادعى الاستقلال في المشيخة منهم بغير واسطة ،كما تشهد لذلك أحوالهم وأقوالهم ،ونسبتهم التي ينتسبون بها للطريقة ،فطرقهم فروع ،مرجعها لمن تقدم ،ومدار كلها الاقتداء بسيد الخلق ،في طلب الوصول الى الحق . وتكلمنا فيه أيضا على قوة الروح المجردة عن الجسد لصفائها من رعونات النفس،وكثافة الجسم ،فهي في ترقية المتعلق بأذيالها أقوى ،لحضورها بالاستحضار على قدر همة مريدها ،مع الاستدلال على ذلك بكلام العلماء والحكماء ،وبعلم استحضار الارواح ،والتنويم المغناطيسي ،مع ما تطمئن اليه نفس المريد ،من كون الشيخ الميت مأمون الجانب من الطمع مما في يد المريد ،وان كان المريد يلاقي في عقبة ترقيه مصادمات من اخوانه في الطريقة ومقدميها ونحوهم ،ما هو من قبيل المحنة بما يكاد ينفره منهم بما لهم من التشوف لما في يده .على أن هذا لا تأثير له في الاقتداء بالشيخ الكامل ،لأن ذلك ليس منه ،فلا معنى للطعن في الطرق بمثله .وانجر بنا الكلام الى أن النفوس دائما تميل الى الاعتقاد في الأموات،وانتفاع المريد لا يكون الا باعتقاده .وفي بعض الآثار (لو اعتقد

اعتقد أحدكم في حجر لنفعه) وغالب ما يتسرع اليه اعتقاد المريد في الأموات لغيبة بشريتهم عنه، فلا يرى الا الكمال في شيخه الميت، بحسن الظن الذى جره اليه حسن اعتقاده، مع تأييد جميع ما ذكر بالمعقول والمنقول، مما يحصل به طرب الحي حقيقة، والله الموفق. ثم قال الناظم أبقى الله حرمته:

والحق ما قدر في الكتاب لذا جهلت الحكم في الكتاب

في هذا البيت مما يدل على اذعان الناظم لمجارى الأقدار ما يبرهن به على كمال فتحه، وصفاء مشربه من عين المعرفة بالله التي جرت من معدن الشريعة المطهرة، فانه قد اعترف بأن الحق فيما صدر منه من الانقطاع عن الطريقة التجانية، والانخراط في سلك غيرها، بعد تقييده بحبلها، هـ(السابقة التي سبقت له في أم الكتاب، وبسبب ما قدر عليه من ذلك جهل الحكم الذى جرى عليه في المكتوب عليه، أو جهل ذلك بين الكتبة الذين كتبوا ما كتبوه اعتقادا أو انتقادا. فيحتمل أن يكون الكتاب الأخير من هذا البيت بمعنى المكتوب، أو جمعا لكاتب، والكتاب الأول بمعنى أم الكتاب، أو اللوح المحفوظ، أو بمعنى القضاء والقدر، حسبما ظهر لنا في معناه مما رويناه في الصحيح من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: ((ان أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم ينفخ الملك فيه الروح، ويؤمر بكتب أربع كلمات، بكتب رزقه وأجله، وشقي أو سعيد. فوالذى لا اله غيره ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها) وقد كنت تكلمت على هذا الحديث بحضرة سيدنا محمود حفيد الشيخ رضي الله عنه، بما أعده من امداد السر من حضرة سيدنا رضي الله عنه، بعطفته وهبوب نفحاته الربانية، ولا بأس باثبات ما أخذناه منه هنا على طريق الاشارة، مع اختصار مناسب لهذا المقام، حيث تذكرنا ذلك، فقلت: قد يؤخذ من هذا الحديث الشريف عمل الصوفية من دخولهم للخلوة، وادخال المريد لها في الاربعينيات الثلاثة، فان المريد الذى يلقي نفسه بين يدى شيخه ينزل منزلة النطفة، اذا قرت في الرحم، فيتلقاه الشيخ كما يتلقاها الملك، وينظر في أحواله أربعين يوما تحت رعايته وتربيته، ثم يصير المريد علقة متعلقة بأذيال شيخه، ويعمل على ما أشار به عليه، وشيخه ينظر في أحواله أربعين يوما أخرى، ثم يتنزل منزلة المضغة في الاربعين الثالثة، فان أعجبت الشيخ أحواله فيها بلعها والا مجها، فان بلعها نفخ فيه روح الارادة لخيره، وأمده من سره، فيكون منه ما يكون. غير أن هذا المريد

اذا

اذا وصل لهذه المرتبة فليكن على حذر من الدعوى ، الا اذا أذن له فيها من الحق اذ ننا لا يتطرقه احتمال ، لأنه لا علم له بالسابقة ، فاشتغاله بنفسه أولى له من غير اعتماد على عمل يوجب له على الحق شيئا ، فان الله فعال لما يريد ، ولا يسأل عما يفعل ، ختم الله لنا بالحسنى ، وأكرمنا بالزيادة ، انه على ذلك قدير . ثم ورد عليّ مصنف آخر لكلام الناظم هنا ، ولا أدرى هل هو مقصود له أولا ، وذلك أنه كان ألف أيام انقطاعه عن الطريقة التجانية تأليفا بالغ بالانكار فيه على مقالات ينسب بعضها للشيخ ـ قدس سره ـ وبعضها لأهل طريقه ، وبعضها لغيرهم ، وبسط القول في ذلك ، وحكم على أهل تلك المقالات بما كان رآه ، ثم تبين له بعد ذلك أن الحق والصواب في ترك الانكار ، وظهر له الحق فرجع اليه بمقتضى انصافه ، فان الرجوع الى الحق حق . وفي رسالة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي موسى الأشعرى رضي الله عنه (ولا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم ، فراجعت فيه رأيك ، فهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق ، فان الحق لا يبطله شيء ، ومراجعة الحق خير من التمادى في الباطل) وقد تكلم ابن القيم الجوزية المتوفى سنة (751) على هذه الرسالة في كتابه (اعلام الموقعين عن رب العالمين) بما ينبغي لكل فقيه أن يطلع عليه . ويعجبني في هذا الموضوع ما أنشده مؤلف الوسيط :

ليس من أخطأ الصواب بمخط ان يؤب لا ولا عليه من ملامه
انما المخطئ المسيء الذى ان وضح الحق لج يحمي كلامه

وقلت من هذا المعنى :

لا يضرنك الرجوع الى الحق وان كان في رجوعك عار
انما العار أن تكون مصرا أو بذاك الخطا اليك يشار

ولهذا اعترف بأن الحق لم يقدر في ذلك الكتاب الذى أنكر فيه ما أنكره ، وأنه جهل الحكم بالصواب فيه بين الكتاب الذين كتبوا ما كتبوا ، وقالوا ما قالوا ، وأنه رجع عن ذلك الانتقاد ، وأنه في أهل الله من ذوى الاعتقاد . وقد كان وقع في يدى ذلك الكتاب وتصفحته وأحصيت النقط التي تكلم عليها ، وكنت عزمت على الكتب عليه فلم يقدر ذلك ، وكان من قدر الله رجوع مؤلفه عنه . وقد اجتمعت به ـ أبقى الله حرمته ـ فتفاوضت معه فيه ، فأخبرني بأنه لم يقصد به الطريق الأحمدى ، وانما صدر منه انتقاد ما انتقده في غيرها على حسب ما كان ظهر له ، وهو الآن متبرئ من كل انتقاد ، زاد الله في معارفه . ثم قال معربا عن حاله مدة انقطاعه عن الطريقة بانتقاله :

وأى فضل كان في انتقالي لولا انتشار الوهم في خيالي

هذا منه استفهام انكارى للفضل الذى كان يظن أنه يحصل عليه بانتقاله عن الطريقة التجانية التي كان متقيدا بها الى الطريقة التي نصحه

نصحه بها ذلك الغير الذى تحقق بعد ذلك بأن نصحه لم يجده نفعا ، فكأنه يقول : لم أحصل على فضل في الطريقة التي انتقلت اليها . ولولا انتشار الوهم في خيالي ما انتقلت عنها الى غيرها ، ولكن الوهم استولى علي بما نصحني به ذلك الناصح ، فتركت الطريقة التي كان من حقي المحافظة على عهدى فيها ، فهي أفضل من غيرها ، والفضل الحاصل لي فيها متحقق بفضل الله . ولا شك أن الوهم يتسلط على المريد اذا اجتمع بغير شيخه ، وبغير خواص طريقته ، لما يراه من أحوالهم التي يمل معها الى أقوالهم ، ما دام لم يتمكن في المحبة التي تمتزج به ، فلا يعدل عنها ولو اجتمع بقطب الوقت . وأما ما دام غير ثابت القدم فلا ينبغي له الاجتماع بمن يدله على الوصول الى الله من غير طريق شيخه ، ولذلك قال الشيخ الأكبر ابن عربي الحاتمي — قدس سره — في فتوحاته : ما سامح شيخ مريده في الاجتماع بغيره ، فانه ما اجتمع مريد بغير شيخه الا حصل له تردد في أى الشيخين أعلى من الآخر حتى يتلمذ له ، واذا حصل له ذلك رفضه قلب الاثنين فلم ينتفع بأحد منهما ، لأن شرط الانتفاع جزم التلميذ بأنه لا يخرج من دائرة شيخه حتى يحصل له الكمال اهـ .

والناظم هنا يتأسف على ما فاته بانتقاله عن الطريق ، وفي ذلك نوع انكسار قلبي يجازى عليه ، بكون الحق معه في حضرة الانانية ، بمقتضى (أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي) وكأنه يوقظ من وقعت منه سنة الغفلة ، فانتقل عن هذه الطريقة لغيرها ، أو برفض الطريقة لأوهام تسلطت عليه فحرم من خيرها ، وعسى أن يجد أذنا واعية لمقاله . فمن وقع لهم انقطاع ، ولم يحصل لهم انتفاع ، ولا جرم أن كل ما صدر من قلب متنور مثل الناظم ٥ أبقى الله حرمته ـ يقع موقع قبول ، بين مريدى الوصول ، فان أقوال الملوك ملوك الاقوال فيما يقال ، وهو في ذلك صادق الحال ، بشواهد الاعتراف الذى لا موجب له الا الرجوع للحق ، فقد خرج مقاله من قلب ممتلئ بالانصاف . وقد قالوا : ان الكلام اذا خرج من القلب وقع في القلب ، وهذا عندى مقيد بما اذا كان القلب فيه قابلية قبول الحق ، والا فلا ، نسأل الله أن يثبت قلبنا على الحق ، والتصديق لأهل الحق ، والوفاة على الايمان ، انه رب ذلك والقادر عليه . ثم قال الناظم :

وأى عاقل يروم غيرها   وقطبها شمس الدنا وبدرها

يقول : ان العاقل اذا كان له الاختيار بين أخذ شيء فاضل وشيء مفضول ، فانه لا يختار لنفسه الا الشيء الفاضل ، سيما اذا تحقق بذلك ، بحيث لو كشف عنه الغطاء ما ازداد يقينا ، كما يقع ذلك لبعض المومنين بالغيب ، أو تحقق له ذلك بما رآه من الشواهد ، أو باخبار من وضع الله ثقته في قلبه ، فصدق بما سمعه منه ، أو بلغه عنه ، وغير ذلك مما يحصل للمعتقد ، أو يجر للاعتقاد . فالعاقل يسارع لنيل الشيء الفاضل

الفاضل كما هنا ،فان الطريقة التجانية قطب رحاها الذى أتى بها وأظهرها للوجود ،بتلقيها عن سيد الوجود صلى الله عليه وسلم،هو شمس الدنيا وبدرها المستنير. فلا ينبغي للعاقل أن يعرض عنها بعد تقيده بها ،أو عرف فضلها ولم يتقيد بها ،فانه لا يختار غير الفاضل الا جاهل ،أو غير فاضل ،أو شخص غير عاقل. والدنا في كلام الناظم جمع لدنيا ،وجمعت باعتبار العصور ،فكل عصر دنيا ،فهو يقول :ان قطب هذه الطريقة ،وهو الشيخ — قدس سره — شمس العصور وبدرها ،وشبهه بالشمس لعلو مكانته ، ورفعة مقامه ،وانفراده بالمزايا العظمى التي نالها ،وشهرته بين الخاص والعام شرقا وغربا ،ولا يتجاهل هذا الا جاحد أو جاهل جامد ،ولعمرى انه :

ما ضر شمس الضحى في الأفق طالعة
أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

ثم قال :

أتوب من ذنبي ومن خروجي عن شرط ما التزمت في ولوجي
ملتزما للعود والدوام في حزبه والشروط والاحكام
فلا أحيد انني خديم أرجو اعوجاجي به يستقيم

صدق — والله — هنا ما يقال :من خدم المولى خدمته عبيده ،ومن أطاع الله أطاعه كل شيء ،وكفى دليلا على رفعة مقام الناظم وتواضعه مع أهل الله اعترافه بخدمة هذا الجناب الاحمدى ،تقربا منه للجناب المحمدى ،الذى من أطاعه فقد أطاع الله ،مع نظره لنفسه بأنه معوج يطلب بجاهه استقامة اعوجاجه ،وقد صرح بالتوبة من خروجه من الطريق التي اشترط عليه فيها القيام بأركانها عند تقيده بحبلها بين ذوى التصديق . ولا شك أن هذا كله لم يصدر الا عن نية صادقة ،وهمة فائقة ،وحالة رائقة ،والا فلا محوج للمعترف به ،وفيه من التنزل ما لا يخفى الى مقام لا يقوم فيه الا الصادقون. وقد التزم في هذه الحالة عوده الى الطريقة ، بالمحافظة على أركانها ،وشروطها وأحكامها بين حزب الشيخ رضي الله عنه وصحبه بنية الدوام على ذلك ،وهذا منه عهد ثان وقع منه بعد تجربة نقض العهد قبله ،ولعلم الحق بصدقه وفقه للرجوع للحق ،ووجد من جدد الاذن له فيها ،فتيسر له ما لم يتيسر — غالبا — لغيره ،فلم يحرمه الحق من سر الشيخ — قدس سره — ولا من خيره ،فكان من عناية الحق به رجوعه للطريق بعد انقطاعه عنها ،وذلك من التوفيق الالهي. ولقد بلغنا عن الشيخ رضي الله عنه من تحذير المريد من نقض عهده ،ورفض ورده ،ما تقشعر منه الجلود ،وفيه من التخويفات ما يبادر بانكاره الجحود ،ومن لا يعرف مقاصد الشيوخ — رضوان الله عليهم — في تخويف مريديهم من الانقطاع عن طريق الانتفاع بكل مخوف ،ان لم يواظبوا على عهودهم ، كالتخويف في ترك ذلك بسوء العاقبة وتهديدهم ،بكون ذلك الانقطاع

يؤدى

يـؤدى بهم للكفر، وسوء الخاتمة، نسأل الله العافيـة. وهـذا ونحـوه مما يخوفون بـه المريد مما لا تقبله عقول القاصرين. فالشيوخ يقصـدون بالكفر بالتهديد بالكفر كفر النعمة، وهي النعمة خاصة، وهي نعمة ما أخذ عليهم العهد على القيام بـه، فان المريد بمجرد تلقيه عن شيخه أو مقدمه أوراده ظفر بسر كبير، وخير كثير، وهو في ازدياد ما دام محافظا عليه، وتلك نعمة من الحق عليه في قيامه بما يقربـه منه، من أوراد لهـا أسرار، ونوافل خير وأذكار، ونحو ذلك، فان أعرض عما التزمه من ذلـك فقد كفر هذه النعمة، وربما أدى بـه كفرها الى الكفر حقيقة، كما وقـع لمن يكفر الناس بما بـاء هو بـه كفرا، وهو معنى الموت على سوء الخاتمة في حق من نقض العهد، فانـه ربما أداه ذلك الى اطلاق لسانه في تلـك الطريقـة، وفي شيخه، ويسرى به الانكار الى سب أهل الله، والاعراض عما يتقربون به للحق، وربما أداه الى اتهام حملة الشريعـة، أو الخوض فيـها بالرأى، ويحسب أنـه على حق، وغيره على ضلال، ويجـره ذلك الخوض فـي الولايـة والنبوءة بما وقع فيـه جل من أنكروا على أهل الله، وجزاء مثـل هذا ان أصر عليه الموت على سوء الخاتمة، لمحاربتـه للحق في أوليائه، ويرى أنهم غير أوليـاء. وأقـل ما يبتلى بـه تهاونـه بأمور دينه، مع ابتلائه بما يبعده عن الحق، وربما عجلت عقوبتـه في الدنيا بما لا يشعر بـه فـي امتحانـه، ولا يرى أنـه مصاب من أجل ذلك، ولا يوفـق للشعور به، ويقلـع عن غيه الا من أريد بـه الخير، وهم قليل من قليل من هـؤلاء، لأنه أصيب بالسهم الذى رماه فانصدعت انيتـه، الا في حق من صدق الله بما صدر منـه في سره ونجواه. وقـد تكلمنا على هذه المسألة في كتابنا (الكوكب الوهاج لدى قول المصنف: وارتفع الاذن بمنـافي ملتزم، ووجب التجديد والتـوبة، وحرر الموضوع في البقيـة بما فيـه كفايـة لدى قول المنيـة:

ومن لبعض ما تقدم نبـذ ... يخسر في الدارين ان كان أخذ
وذا الوعيد قالـه خير الورى ... لشيخنـا يقظـة بـلا مـرا
ومـن يتـب من فعلـه ويندم ... ثـم يجدد الطريق يسـلم

فـلا نطيل بنقل ذلك هنا، ولنثبت في هذا المحل قصيدة للناظم ــ أبقى الله حرمتـه ــ اعترف فيها بما صدر منه، وأنـه رجع للطريقـة بعد ما أعرض عنها، ومنها البيت المتقدم الذكر، وهـو:

واني وان كنت المسيء الذى اعتدى ... وحارب جهلا، ها أنا اليوم طائـع

وهي من أبـدع ما يقـال في هذا المقام، ونصـها:

ألا هل يلذ النوم والربع شاسـع ... وهل عن لقاء الحب يغني التواضع
وهل من ملام ينثر الجفـن دره ... اذا هيجت ما في القلوب الفظائـع
وحرك حب القلب وجد تزايدت ... حرارتـه مما حوتـه الأضالـع
وقد سل سيف البغي دهر وشعرت ... حوادثـه ما الجفن منهن هاجـع
وبادت

وبادت رسوم القلب بالهجر والعنا … وللجسم حكم القلب اذ هو تابع
ألا فلتدع لوم المتيم انه … يصادم هولا همه القلب قاطع
أما كان يكفي ذا النحول الذى سجا … ووجه كئيب أصفر اللون فاقع
يرى فوقه للخطب رقم أشعة … يرى الرمز منها من دهته الزعازع
فطورا أهيم في الفلاة وتارة … تناجيك بالاحزان عنه الضوالع
سأندب ربعا للأحبة من صفا … به العيش لما ساعدتني الصنائع
ومن كان مأوى الروح والجسم عندما … سقته مزون وبلها متتابع
فعاوده شرخ الشباب وما عفا … ورثيت وراء الستر تلك الودائع
حلاه وان شط الربيع أزاهر … فمنظره يغني وماؤه نافع
جميع نرى الدنيا فداه وان علت … سوى الحرمين وهي عندى بلاقع
فلله ما أشهى زمان وصالهم … أشارت اليه بالمعالي الأصابع
ولله ما أحلى شمائل جمعة … نسيم شذاها في المحافل ذائع
لحا الله دهرا اذ قضى بفراقهم … وعظم من شرع النوى من يخادع
فلولا وشاة في الأنام مجونها … قضى لفطام من قلته المراضع
لما كان نأى الخل عني ولا بدا … وجود لنسج أحكمته الصنائع
ولا كان مني الالتفات لغيرهم … ولا ندّ عمرى في الصبا وهو ضائع
لأني قد أسلمت نفسي للذى … أنا لرضاه يا ابنة العم ضارع
ومن حصنه للقاصدين وقاية … ومن سره يعطيك ما أنت طامع
ومن هديه عم الأنام سناؤه … ففي قلب مخلص هو لامع
أريد به ختم الرجال الذى سما … على الكون طرا دون خصم ينازع
ومن خص من خير الأنام بشربة … أرته علوما قد حوتها الشرائع
وأسرار سر العرش واللوح وانجلت … له من كتاب الله تلك الوقائع
فلولاه جود ما سعى الفوز نحونا … وفي القلب منا وحشة وقواطع
ولولاه ما دى العليل شفاؤه … ولا فرّ مما تقتضيه الطبائع
له رتبة تولي الرجال مراتبا … ومن دونها لولاه ما هو مانع
تجانينا سر الاله لخلقه … له القمران والنجوم خواضع
أبان علوما في الحقيقة أعجزت … ذوى السبق فيها للعباد منافع
هو الكامل المشهور والغوث والذى … سنا مجده في الناس أبيض ناصع
تمده بالأسرار روح محمد … فيا حبذا نهج به النور ساطع
وإياك والانكار فهو حماقة … وذو الطعن في نهج التجاني مخادع
اماني ليالي الوصل غيرها البلى … فرحماك قد جفت دموع هوامع
فلا العيش يحلو ما نأيت وما عسى … وان مكاننا قد هجرت لخاشع
واني وان كنت المسيء الذى اعتدى … وحارب جهرا ،ها أنا اليوم طائع
فما عن قلبي كان البعاد وانما … أطاع الفؤاد ما هوته المسامع
فان تمنحوا المهموم قربا ورأفة … فمحمدة من بعض ما أنت جامع

وان

وان تعف عن ظلم بدا منه بعد ما   قد ارتفعت عن جه ليلى البراقع
فلا غرو ان العفو بالارث ملككم   بدا برقه في ذلك الحي راقع
ولا سيما والله قال : وسارعوا   فمن يعف يدرى ما به الله صانع
وفي ابن أبي سلعى سلو لتائب   ومن نيله ثوب النبي مطامع
وعفو رسول الله مهيع وبله   وصفحه عن أهل الجرائم واقع
وقفو سبيل المصطفى وصحابه   طريقتك المثلى فلا من ينازع
لذلك نيل الفضل والعفو حاصل   لأنك فيض المصطفى أنت راضع
شفيعي فؤاد في هواك بلا مرا   وجدك يوم الحشر للكل شافع

وله قصائد أخرى في مدح الحضرة الأحمدية ، والحضرة المحمدية ، مما يدل على تمكن قدمه في مقام المحبة التي لا انفصام لها في الحضور والغيبة ، وذلك من التوفيق الالهي الذى سلك به في هذا المسلك الفسيح ، الذى لا يثبت فيه الا قدم ذوى الحب الصحيح ، جعلنا الله منهم بفضله ، آمين . ثم قال الناظم :

وأستعين الله في الوفاء   بالعهد مع حفظ من الرياء

الاعانة من الله خلق قدرة في العبد على الفعل ، وفي طلبها من الله اعتراف بعجز من يطلبها عن الاستقلال بالفعل ، وفي ضمن ذلك رائحة فعل للعبد الطالب لها ، يحتاج فيه دائما الى معين ، فيتضح بهذا معنى الكسب المنسوب للعبد ، فهو فاعل مجازا ، والفاعل في الحقيقة هو الله ، وعلى ذلك يتنزل الثواب والعقاب بمراد الحق من الخلق ، وهذا هو مذهبنا كما قيل :

مذهبنا أن لنا قدرة   حادثة لسنا بها نقتدر
وربما جوزا طلاقها   في قوله من قبل أن تقدروا

وطلب الاستعانة من الله من مقامات القائم بحق الفاتحة ، وهو مطلوب من المكلف الاعتراف به في كل يوم سبع عشرة مرة ، وما زاد على ذلك فهو نافلة . فالمكلف مطالب في كل يوم بالصلوات الخمس ، والصلاة بلا قراءة الفاتحة خداج ، وقد اشتملت على البسملة والحمدلة والثناء على الله بالوصف ، بكونه رب العالمين الموصوف بالرحمة الخاصة والعامة ، وبالوصف بأنه هو المنفرد بالملك في الفصل بالحكم يوم القيامة ، مع الاعتراف له بأنه المخصوص بالعبادة له ، وأنه الرب المستعان به ، فلا بالحق سواه ، ولا يستعان بغيره عند العارف به ، مع طلب الهداية منه للصراط المستقيم ، الذى هو صراط المنعم عليهم ، وهم المومنون المخصوصون بالتربية الخاصة من رب العالمين ، وهو صراط غير المغضوب عليهم الذين هم اليهود ، في مقابلة الرحمة من حضرة الرحمن الرحيم ، فقد سبقت رحمة الحق على غضبه الذى تجلى به عليهم ، وهو أيضا غير صراط الضالين من عبدة غير الله في مقابلة حضرة الملك الحق يوم القيامة . فهذه خمس مقامات

مقامات مع ثلاث حضرات، من حضرة الصفات، منوطة بسالكي ثلاث صراطات، وكلها انطوت عليها الفاتحة التي تكرر في ركعات الصلوات المفروضة، ينبغي استحضارها مع العمل بمقتضاها، خصوصا في مقامين :

المقام الأول، مقام الاعتراف العبد باختصاص الحق بالعبادة فلا يعبد غيره، ليكون عبدا ربانيا، وقد تعس من عبد غيره. وفي الحديث (تعس عبد الدنيا، تعس عبد الدينار والدرهم) ونحوهم، فمن دعا عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالتعاسة، وحق عليهم الدعاء بها لعبادتهم لغير خالقهم.

المقام الثاني ـ مقام الاستعانة بالله، فللمتحقق به القوة على حمل كل سر، والصبر على تحمل كل شر، لكونه يرجع الى الله مهما ألم به مهم وكل ملم، فيجده معينا له، كما شفا عنه ما أهمه وما لم يهمه، على قدر ما له من تحققه بالاستعانة به، وحسب تمكنه في هذا المقام، سواء استعان به بواسطة يشكرها به، أو بدون واسطة، فان الاستعانة بزيد مثلا مع استحضار المعان، أن المعين في الحقيقة هو الله، تكسب حالا لم يكتسبها قاصر الهمة بالمخلوق، وحال أخرى لم يكتسبها المعرض عن المعين له من المخلوقين، لكونه مأمورا بشكر معينه المخلوق شرعا، مع شكر المعين الحقيقي الذى هو الله، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، كما في الحديث. واذا ترقى العبد في المقام، ولم يستند لمخلوق أصلا، ولم يستعن الا بمولاه، فهو صاحب حال يظهر بها في مظاهر الجذب، أو السلوك، لابسا لحلة الغنى بالله عن غيره، لكونه آوى الى الركن الشديد الذى يأوى اليه الصديقون، وهو أعلى مقاما من غيره في هذه الحضرة، لما في ذلك من التعلق بالله، واليه أرشد الرسول صلى الله عليه وسلم ابن عمه عبد الله ابن عباس في حديث الدلالة على الله بقوله له عليه السلام (احفظ الله تجده تجاهك، اذا سألت فاسأل الله، واذا استعنت فاستعن بالله) ثم كشف له الغطاء عن وجه الحقيقة لدلالته على الحق، وأمره بالركون اليه فقال عليه الصلاة والسلام : (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك، وان اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك) ولا شك أن من عرف الله فانه يرجع اليه في جميع أموره، ويستعين به في وروده وصدوره، في كل شئ. ومن لا حظ حصر استعانته بربه في قوله (اياك نعبد واياك نستعين) فانه يحصل له اليقين بقدرة ربه الذى لا يعزب عن علمه شئ، فينال من المعرفة به على قدر تمكنه في هذا المقام، وهذا من الأسرار المنوطة بوجوب قراءة الفاتحة في الصلوات. وقد صدرت سورة الخلع في القنوت بالاستعانة فقد قال الله على لسان عبده فيها : (اللهم انا نستعينك) وهي تقرأ في صلاة الصبح التي هي أول صلاة يصليها العبد في يومه، تنبيها من الحق لعبده

لعبده ،على أن لا يستعين بغير ربه . فالعبد يطلب الاستعانة في القنوت والفاتحة ، فلا يجمل به أن يرجع عن طلبه فيستعين بالمخلوق ، وهو يقول : (اللهم انا نستعينك) ويقول : (اياك نعبد واياك نستعين) ولما كان الناظم ـ أبقى الله حرمته ـ سالكا في طريق الشكر ، وقام فيها على ساق الجد في مقام الاستعانة بالله ، صرح هنا بأنه لا قدرة له على الوفاء بما التزم به الا بتوفيق الله ، طالبا من الحق الحفظ من الرياء ، وهذه حالة المتبصرين بمكايد النفس ، فيما هي عليه في المعنى والحس ، فانهم يتنزلون بالخضوع للحق ، والتواضع للخلق ، ثم يتهمون أنفسهم في ذلك التنزل والتواضع ، خشية أن يكون لرياء وسمعة ، فلا يعتمدون بحال من الاحوال على ما يصدر منهم من الافعال ، ويسألون من الحق التوفيق والقبول . وفقنا الله لما فيه رضاه ، وكفانا شر النفوس ، وسقانا من المعرفة بالله دهاق الكؤوس ، بفضله وكرمه ، آمين . ثم قال الناظم ـ أبقى الله حرمته :

نسب سيدنا رضي الله عنه وأرضاه
وعنا به آمين

النسب في اللغة : القرابة ، كما قاله ابن سيده ، أو هو في الآباء خاصة قاله في القاموس . وقال ابن السكيت : ويكون من قبل الأم والأب . وقال شارح الفصيح ، فيما نقله عنه الشيخ مرتضى في تاج العروس : النسب : معروف ، وهو أن تذكر الرجل فتقول : هو فلان بن فلان ، أو تنسبه الى قبيلة أو بلد ، أو صناعة . ومثله في التهذيب . ولا مفهوم لقوله : أن تذكر الرجل ، بل والمرأة كذلك ، فتقول : فلانة بنت فلان ، فلو قال : أن تذكر الشخص ، لكان أشمل . وعلم الانساب علم عظيم النفع ، جليل القدر ، أشار الكتاب العظيم في (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) الى تفهمه ، وحث الرسول الكريم في (تعلموا أنسابكم تصلوا أرحامكم) على تعلمه ، كما قاله في كشف الظنون ، قال : والعرب قد اعتنوا بحفظ نسبهم الى أن كثر الاسلام ، واختلطت أنسابهم بالاعجام ، فتعذر ضبطه بالآباء ، فانتسب كل مجهول النسب الى بلده أو حرفته أو نحو ذلك ، حتى غلب هذا النوع اهـ . وقد ذكر السويدى في كتابه (سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب) : ان المعرفة بعلم الانساب من الأمور المطلوبة ، والمعارف المندوبة ، لما يترتب عليها من الاحكام الشرعية ، والمعالم الدينية ، فقد وردت الشريعة المطهرة باعتبارها في مواضع ، منها العلم بنسب النبي صلى الله عليه وسلم ، والتعارف بين الناس ، حتى لا يعتزى أحد الى غير آبائه ، ولا ينتسب الى سوى أحد من أجداده . واعتبار النسب في كفاءة الزوج ، ومراعاة النسب الشريف في المرأة المنكوحة ، فقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (تنكح المرأة لأربع : لدينها ، وحسبها ، ومالها ، وجمالها) فراعى صلى الله

الله عليه وسلم في المرأة المنكوحة الحسب، وهو الشرف في الاباء، وأطال في ذلك الى أن حكى عن صاحب الريحان والريعان عن أبي سليمان الخطابي رحمه الله تعالى أنه قال: كان أبو بكر رضي الله عنه نسابة، فخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فوقف على قوم من ربيعة فقال: ممن القوم؟ قالوا: من ربيعة، قال رضي الله عنه: وأى ربيعة أنتم، أمن هامتها أم من لهازمها؟، قالوا: بل من هامتها العظمى، قال أبو بكر رضي الله عنه: ومن أيها؟ قالوا: من ذهل الأكبر، قال أبو بكر رضي الله عنه: فمنكم عوف الذى يقال: لا حر بوادى عوف (1)؟ قوالوا: لا، قال: فمنكم بسطام ابن قيس أبو القرى، ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا، قال: فمنكم الحوفزان قاتل الملوك، وسالبها أنعمها؟ قالوا: لا، قال: فمنكم المزدلف الحر صاحب العمامة المفردة؟ قالوا: لا، قال: فمنكم أخوال الملوك من كندة؟ قالوا: لا، قال: فمنكم أصهار الملوك من لخم؟ قالوا: لا، قال: فلستم بذهل الأكبر، بل ذهل الأصغر، فقام اليه غلام من شيبان يقال له: دغفل حين بقل وجهه فقال:

ان على سائلنا أن نسأله والعبء لا يعرفه أو يحمله

يا هذا، انك قد سألتنا فأخبرناك ولم نكتمك شيئا من خبرنا، فممن الرجل؟ قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا من قريش، قال: بخ بخ أهل الشرف والرياسة، فمن أى القرشيين أنت؟ قال: من ولد تيم بن مرة، قال الفتى: أمكنت والله من سواء الثغرة، فمنكم قصي الذى جمع القبائل كلها، وكان يدعى مجمعا؟ قال: لا، قال: فمنكم هاشم الذى هشم الثريد لقومه؟ قال: لا، قال: فمن أهل الندوة أنت؟ قال: لا، قال: فمن أهل السقاية أنت؟ قال: لا، قال: فمن أهل الحجابة أنت؟ قال: لا، واجتذب أبو بكر رضي الله عنه زمام ناقته، فقال الفتى:

صادف درء السيل درءا يدفعه يهيضه حينا وحينا يصدعه

أما والله يا أخا قريش: لو ثبتت لأخبرتك أنك من رعيان قريش، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فتبسم، فقال علي رضي الله عنه: يا أبا بكر، لقد وقعت من الغلام على باقعة، فقال: أجل يا أبا الحسن، ما من طامة الا فوقها طامة. وأبو بكر رضي الله عنه هو أكبر نسابة في الاسلام، وهو الذى أرشد النبي صلى الله عليه وسلم اليه حسان ابن ثابت رضي الله عنه ليبصره بأنساب العرب ليطعن فيمن هجاه من قريش، فقال حسان رضي الله عنه حين قال له النبي صلى الله عليه وسلم كيف تهجوهم وأنا منهم: والله لأسلنك يا رسول الله منهم كما تسل الشعرة من العجين، فقال له صلى الله عليه وسلم: اهجهم ولسان القدس معك.

ثم اعلم أن النسب على قسمين: طيني وديني، فالنسب الطيني هو

هو رفع الشخص نفسه ببيان أبيه وأبي أبيه، وهاكذا. وقد جاء في الحديث (لا ترفعوني فوق عدنان كذب النسابون)، فنسبة فلان لفلان على طريق الأبوة والبنوة هو النسب بفتح السين، وقد تسكن السين لضرورة الشعر كما في قول الشاعر فيما أنشده ابن الاعرابي:

يا عمرو يا ابن الأكرمين نسبا قد نحب المجد عليك نحبا

وهذا النسب هو الذى ترجم له الناظم هنا. وأما النسب الديني فيطلق على صحبة الشخص، وعلى ربط خاص بينه وبينه في وراثة سر، أو وقاية من شر. ويطلق على اضافة شخص لشخص كالعبد لمولاه في اخلاص العبودية له. قال العارف النابلسي لدى قول سلطان العاشقين:

نسب أقرب في شرع الهوى بيننا من نسب من أبوى

يعني أن نسب التقوى، وكمال العبودية، هو النسب الحقيقي يوم القيامة، قال تعالى (فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) وقال صلى الله عليه وسلم: (ان الله تعالى يقول يوم القيامة: اليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم، فأين المتقون) اهـ. وهذا النسب هو الذى جعل بلالا الحبشي وسلمان الفارسي وصهيبا الرومي من الآل، وأبعد من لم يومن بالنبي صلى الله عليه وسلم من أعمامه، وهو من أجله تبرأ ابراهيم من عمه الذى هو بمنزلة والده، قال تعالى (وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) وكان وعده بالاسلام والايمان، فامتنع من ذلك حسبما ذكر ذلك المفسرون. ومن أجله أبعد ابن نوح، وقيل له فيه حين قال (رب ان ابني من أهلي وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين، قال يا نوح انه ليس من أهلك، انه عمل غير صالح) ولذلك لا يعتمد العارفون على النسب الطيني، ويرون القرابة المعنوية أولى من الحسية، التي هي الأبوة والأمومية والعمومة، وما في معنى ذلك من النسبة الرضاعية، ولاعتبار المعنوى قيل في المثل: القريب من تقرب، لا من تنسب. قال في تاج العروس: أى القريب من تقرب بالمودة والصداقة، لا من ادعى أن بينك وبينه نسبا، قال: ويقرب منه (رب أخ لم تلده أمك) قال حبيب:

ولقد سبرت الناس ثم خبرتهم وبلوت ما وضعوا من الأسباب

فاذا القرابة لا تقرب قاطعا واذا المودة أقرب الأنساب

وبعبارة: النسب على قسمين: طيني وديني، ويقال: جسماني وروحاني كما يقال: ذاتي وعرضي. فالأول وهو الطيني نسبة الشخص الى من له عليه ولادة أبوة وأمومة، وهو المراد هنا. والثاني وهو الديني نسبة الشخص الى من له رابطة افادة أو استفادة دينية، ويعظم الانتفاع بهذا بقدر الاعتقاد، فان السر منوط به، وان لم يكن في المعتقد فيه ما يستحق به ذلك بمقتضى الأثر الوارد، وهو قول الرسول عليه السلام (لو اعتقد

اعتقد أحدكم في حجر لنفعه) وهنا تتسع دائرة العارف فيعد من أشياخه كل من استفاد منه فائدة بلسان حال أو مقال ، وهو المعني بقول أحد رجال طبقات القطب الشعراني رضي الله عنه عن شيخنا وعنهم وعنا آمين :

وكل من أخذت عنه علما   أو أدبا فهو امامي حتما

وذلك لأن النفع حاصل للمستفاد منه ، ولو جحد شيخوخته المستفيد. وأول شيخ ظهر في العالم أبونا آدم عليه السلام ، فهو شيخ للملائكة ، فقد تصدر للتعليم بالاذن الخاص من الحق ، اذ قال : (يا آدم أنبئهم بأسمائهم) كما أنه هو الأب الطيني لنبيه ، ولكونه عليه السلام قعدد الانساب مع طول العهد يقتصر أهل التحرى في النسب على ذكر البعض من العهود النسبي ، من غير الوصول اليه الا بتساهل لا ينبغي . وقد ورد في الحديث (لا ترفعوني فوق عدنان كذب النسابون) وقد جزم عليه السلام بكذبهم ، لأنهم لا بد أن يقعوا في الكذب وان لم يتعمدوه ، على أن قعدد النسب وان تفرعت فروعه الى فروع كثيرة من الشخص الواحد فهو آدم وحواء عليهما السلام ، وعلى بنيهما الكرام . وانه ليحق للشخص التعجب اذا نظر الى أصوله التي تفرع عنها ، فنظر التتبع لآبائه وأمهاته ، وآبائهم وأمهاتهم ، فانه يجد نفسه مرتبطا بثمرات من البنوة له متصلة بهم الى آدم وحواء فمن دونهما . فان أحد مثلا أبوه فلان ، وأمه فلانة ، وأبو أمه فلان ، وأبوها فلان ، وأم أبيه فلانة ، وأم أمه فلانة ، وأبوها فلان ، وهاكذا ما امتدت الأصول من جهة الابوة والاموة ، وكلهم لهم عليه حق الولادة ، وصلة رحم يتعين عليه تفقدها ، وهو في غفلة عنها ، سيما اذا أضاف لذلك نظرة اعتبار أبوة الرضاع ، فان الجميع تسره سعادته ، وتسوءه شقاوته . وقد تفطن لذلك الشيخ الأكبر ابن عربي الحاتمي فصام بالنيابة عن آدم عليه السلام يوم السبت ، وقال : هذه رحم مهجورة وصلتها بهذه الصلة . ومما استفدناه من شيخنا العارف بالله سيدى ومولاى أحمد العبدللاوى رضي الله عنه : أن من أهدى ثواب مرة واحدة من صلاة الفاتح لما أغلق الى آبائه وأمهاته الى آدم وحواء ، فانه يكون مستوفيا لحق صلتهم واذا أضاف اليهم ذوى الارحام وجد نفسه في وسط أمة ، كل واحد منهم له عاطفة رحمية من أب أو جد ، وأم أو جدة ، الى آدم وحواء يستوجب بها رضاهم ، ويستوجبون الدعاء منه الى أن يلقاهم ، فصلة الرحم معهم متعينة ، وهم منتفعون به ، وسيكون التزاور له مع أهل السعادة منهم ، ولا أسعد من آباء النبي صلى الله عليه وسلم باتصال الرابطة بهم عليهم السلام ، على ممر الدوام ، مع آبائنا وأمهاتنا الى آدم وحواء ، الى أن نجتمع بالسعداء منهم في دار السلام ، آمين .

ولقد ترجم العارف الفوتي رحمه الله في كتابه (الرماح) للوالد المعنوى الذى هو الشيخ ، وبسط القول فيه في الفصل الثالث والعشرين

بما

بما يغني عن نقل شيء منه هنا لمن راجعة هناك، وسيأتي للناظم ـ أبقى الله حرمته ـ الكلام على أبناء الشيخ رضي الله عنه الذين هم شيوخه في ترجمة سند هذه الطريقة رضي الله عن صاحبها وعنا به آمين. أما قوله هنا (سيدنا) المراد بالسيد هنا الشيخ الختم التجاني ـ قدس سره ـ وقد أضاف اليه الناظم ضمير المتكلم المعظم نفسه، أو باعتبار غيره معه، أما أولا فان الناظم معظم قدره يستحق التعظيم لما آتاه الله من الشرف الباذخ، والمجد الشامخ، نسبا وحسبا وعلما، فيتعين تعظيم ذلك وأهله. أما العلم فقد ورد عن سيد العالمين (ليس منا من لم يتعاظم بالعلم) أي ليس على سنتنا من لم يعظم العلم بعدم اهانة نفسه بوضعها وانزالها بمحل يهان بسببه العلم، وقد أفصح عن ذلك الجرجاني في قوله من أبيات:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما

وقيل في رفع الهمة وعزة النفس:

اذا أنت لم تعطي لنفسك حقها وهنت بها كانت على الناس أهونا

وأما الحسب فيتعين تعظيمه، فيعظم الشخص غيره من ذوي الحسب، ويعظم نفسه من أجل حسبه، فلا يوقع نفسه في الهوان، لا في العامة ولا في الخاصة، وذلك في ظاهر الاحوال في محل لا يقتضي بتعظيمه لنفسه اهانتها أيضا، فان الزيادة في الشيء نقصان، وان الشيء الذي لا ينبغي أن يقال: ـ وان كان حقا ـ مدح الرجل نفسه. وعلى كل حال فلكل مقام مقال، والعاقل من يراعي المقام، ويعطي الحق أهله بكمال احترام. وأما النسب، فان البضعة العلوية في النسبة لا يقبل فيها الدخيل، وبالأخص النسب الملوكي، فالنسبة فيه محفوظة، والمناسبة فيه ملحوظة، لا يوجد فيه الدعي، ولا من لغير أبيه دعي، أبقى الله حرمته. وفي هذا الذي ذكره الناظم ـ أحسن الله اليه ـ ظهر أمران مهمان: أحدهما كمال تواضع الناظم ـ زاد الله في معناه ـ بتنزله بخدمة هذا الجناب، مع جلالة منصبه، ورفعة مقداره، وكمال سؤدده، فلم يزده قوله (سيدنا) في حق الشيخ رضي الله عنه الا تواضعا بذلك لله، ومن تواضع لله رفعه الله. والأمر الثاني: رفعة منصب الشيخ رضي الله عنه، فلولا مكانته من الحضرة المحمدية، وصدق عبادته لمولاه ما حصل له هذا الاقبال، فهو عبد الحضرة الحقية، صار فيها سيدا للملوك، ومن خدم المولى بحق خدمته العبيد، فتنزل الناظم رفع الله قدره باضافة نفسه بالسيادة للشيخ رضي الله عنه مما يبرهن على علو مرتبته رضي الله عنه. وفي قوله أيضا (سيدنا) اعلام منه بجواز اطلاق السيد على غير الله، وهو قول أهل الحق من كل مذهب، وقد حملوا قول النبي صلى الله عليه وسلم لمن ناداه (ياسيد، السيد هو الله) على محامل من تواضعه صلى الله عليه وسلم، وارشاد

وارشاد مناديه للحق، فانه دله على الله بقوله: (السيد هو الله) ونحو ذلك مما فيه حكم بالغة، بحيث لو لم يجبه النبي صلى الله عليه وسلم لحصلت فتنة لذلك الاعرابي ولمن معه، فانه صلى الله عليه وسلم ما ينطق الا بحكمة، وما ينطق عن الهوى. وأما دعاؤه للشيخ رضي الله عنه بقوله رضي الله عنه: فانه من قبيل شكر النعمة التي أجراها المولى للناظم على يد الشيخ بما تحقق به في عالم سره بحسن اعتقاد وحسن ظن. وقد عمل في ذلك بمقتضى قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من أسدى اليكم معروفا فكافئوه، فان لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له، حتى تروا أنكم قد كافيتموه) فبذلك يكون مؤديا لشكر تلك النعمة التي جرت على يده، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله. فشكر المنعم قد أداه بالدعاء له هنا، وهو واجب شرعا عندنا، وعقلا عند المعتزلة. والدعاء بالرضى مما يزاحم الدعاء بالعافية، وكثير من الداعين لم ينتبهوا للدعاء لانفسهم بالرضى، وانما يدعو به لمن تعظم منزلته لديه، فأسأل الله لي ولأحبابي رضاه الذى لا سخط بعده.

أما الناظم أمنه الله، فانه تنبه للدعاء لنفسه بالرضى، وأدخل معه اخوانه وأحبابه الذين استحضرهم في قوله (وعنا به) يعني: ورضي عنا بسبب الشيخ رضي الله عنه، أو بسبب رضاه عن الشيخ – قدس سره –. فالباء من قوله (به) سببية، وللباء معان أخر، لا بأس بذكر بيتين أحفظهما فيها على طريق ايهام التناسب، وهما:

تعد لصوقا واستعن بتسبب وبدل صحابا قابلوك بالاستعلا

وزد بعضها ان جاوز الظرف غاية يمينا تجر للبا معانيها كلا

وتقدير كلام الناظم وتقريره هذا فصل نسب سيدنا الشيخ القطب الختم التجاني رضي الله عنه وعنا بسببه. والرضى من الله عن العبد اقرار عينيه بما يحب، وادخاله الجنة، وشموله بالمنة، واكرامه بالنظر لوجهه، وهو للعبد الفوز العظيم، يرشد لذلك قوله تعالى (رضي الله عنهم ورضوا عنه). وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بينا أهل الجنة في مجلس لهم اذ سطع لهم نور على باب الجنة فرفعوا رؤوسهم، فاذا الرب تعالى قد أشرف عليهم فقال: يا أهل الجنة سلوني قالوا: نسألك الرضى عنا، قال تعالى: رضاى عنكم قد أحلكم دارى، وأ‍ أنالكم كرامتي) الحديث، وهو بسنده في الرسالة القشيرية في ترجمته لباب الرضى، وتكلم على الرضى بما شفى به الغليل، وتعرض لرضى العبد بما قيل فيه: هل هو من الاحوال، أو من المقامات؟ حتى قال: ويمكن الجمع بين اللسانين فيقال: بداية الرضى مكتسبة للعبد، وهي من المقامات، ونهايته من جملة الاحوال، وليست بمكتسبة، ونقل عن الناس من كلامهم في الرضى بما عبر به كل واحد منهم عن حاله ومشربه، حتى قال: واعلم

واعلم أن العبد لا يكاد يرضى عن الحق تعالى الا بعد أن يرضى عنه الحق تعالى ، لأن الله عز وجل قال : (رضي الله عنهم ورضوا عنه) . ثم قال : سمعت الاستاذ أبا علي الدقاق يقول : قال تلميذ لأستاذه : هل يعرف العبد أن الله تعالى راض عنه ؟ فقال : لا ، كيف يعلم ذلك ، ورضاه غيب ؟ فقال التلميذ : بل يعلم ذلك ، فقال : كيف ؟ فقال : اذا وجدت قلبي راضيا عن الله تعالى علمت أنه راض عني ، فقال الاستاذ : أحسنت يا غلام ، الى آخر ما ذكره مما ينبغي مراجعته في هذا المقال . ثم قال الناظم رضي الله عنه رضاه عمن بايع الرسول عليه السلام تحت الشجرة :

أفضل ما في ذا الورى قد علما
نسب شيخنا التجاني من سما
لست أحاشي غير خير الخلق   وحزبه وصحبه للسبق
والله يعطي ما يشا لمن يشا   ولا يكون غير ما في الخلق شا

يحتمل أن يكون (من سما) بدلا من قوله (شيخنا التجاني) ، ومعمول (سما) محذوف ، تقديره : غيره و (علم) مبني للمجهول . ويحتمل أن يكون (من سما) فاعل (علم) المبني للفاعل ، ونسب شيخنا خبر لأفضل فيهما معا . ولك جعل نسب شيخنا مبتدأ خبره أفضل ، والمعنى على هذا : ان نسب شيخنا أفضل العلماء ، كأنه يقول : أفضل شخص قد علم في هذا الورى نسب شيخنا ، فهم كلهم علماء . فقوله : قد علم على هذا نعت لما وقعت عليه (ما) من قوله (ما في ذا الورى) وعلى الاعراب الثاني : أفضل شيء علمه من سما في الخلق نسب الشيخ . وعلى الأول : أفضل شيء علم في هذا الخلق نسب شيخنا الذى سما وفاق غيره ، وهذا هو الموافق للاستثناء في البيت الثاني ، ولا يعد هذا غلوا في المدح ، لكون مرتبة الشيخ رضي الله عنه في مكان مكين من الولاية الخاصة ، فهو مستحق لذلك لتحصيله على المقام الأرفع من الختمية ، فهو أفضل الاولياء ، حاشا خير الخلق ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، وحاشا حزبه من اخوانه النبيين ، وحاشا أصحابه الذين سبقوا الشيخ بصحابتهم للنبي صلى الله عليه وسلم وأخذوا عنه قيد حياته ، فهم لا يوازيهم في الفضيلة أحد ، وسياتي مزيد بسط لهذا المعنى لدى قول الناظم في فصل ما خص الله به الشيخ رضي الله عنه حيث يقول :

وانما فضله الصحابه   لرؤية صبوا لها صبابه

فالاستثناء من معمول (سما) المحذوف ، لا من قوله (نسب) ولا شك أن الافضلية هنا نسبية ، وهو بالنسبة للسامي ، وهو من سما المراتب ، أو سما غيره بحسن الظن ، وسلامة الاعتقاد في أهل الله . وأما الساقط النازل للحضيض ، وهو المنكر والمنتقد فلا كلام معه ، لأنه لا يرى فضلا لأحد ، فضلا عن أن يقول بمثل هذه الافضلية التي لم يكن فيها قد اعتقد . ثم

لا ينبغى

لا ينبغي أن تحمل هذه الافضلية على غير المخلوق ،فان غير المخلوق لادخل له في الافضلية ،لأنه لا نسبة بينه وبين غيره ،فكلام الحق وسائر صفاته وذاته العلية خارجة عن المقصود هنا ،فلا يوازى معرفة الحق شيء .فان قلت: يكون نسب الشيخ أفضل ما علم من الانساب،أو من الأشياء من الخلق ،فأين نسب النبي منه ؟ فالجواب :ان* نسب النبي صلى الله عليه وسلم هو نسب للشيخ رضي الله عنه ،لأن الشيخ من سلالته عليه السلام ،ونسبه اليه يرفع من جهة أبي عبد الله محمد النفس الزكية ،وسنزيد لذلك توضيحا بحول الله .ولا يرد غير هذا هنا من سائر الانساب لغيره ،فلا يقال :ان نسب غيره من الأشراف يكون أفضل ،لأن الله سبحانه يعطي ما شاء لمن شاء .فالناظم ـ أبقى الله حرمته ـ يرى ذلك بما أودعه الله فيه من صدق الحب في هذا الجناب ،فحكم بما تحققه في عالم سره ،موافقا فيه لغيره من خواص الطريقة ،فلسان حاله ينشد في الحقيقة :

وما عليّ اذا ما قلت معتقدى دع الجحود يظن الحق بهتانا

وقد استدل على ذلك بأن الفضل بيد الله يوتيه من يشاء ،واذا كان الفضل بيده سبحانه يمنح من يشاء ،بما منه شاء ،ولا يكون في خلقه الا ما يشاء .فالمنازعة حينئذ هنا في الفضل ما لها محل ،وهذا الذى صرح به الناظم هنا ،وان كان من قبيل ما لا يذكر للعامة ،فانه قصد به ارغام من ينكر مثل ذلك في الطريقة ،وله في ذلك لذة لا يعرف معناها الا من ذاقها ،فهو بلسان حاله ينشد :

فصرح بمن تهوى ودعني من الكنى فلا خير في اللذات من دونها ستر

ثم قال الناظم :

لذاك مجد حرة الاشراف أيد بالتقوى وبالعفاف
عائشة الطاهرة الجنان من شيدت معالم الايمان
اذ قد أتت بالعالم النحرير شيخ المشايخ ذوى التنوير

الاشارة لما ذكره من الفضل الموهوب لمن شاء الله أن يهب له ما شاء ، أى لأجل ما خول الله هذا النسب الكريم ،أيد الله والدة هذا الشيخ العظيم ،كما في القاموس: نيل الشرف ،قال في شرحه :وقيل هو الأخذ من الشرف والسؤدد ما يكفي ،والمجد :المروءة والسخاء والكرم ،قال ابن سيده :أو لا يكون الا بالآباء .قال ابن السكيت :الشرف والمجد يكونان بالآباء ،يقال :رجل شريف ماجد ،له آباء متقدمون في الشرف ،قال : والحسب والكرم يكونان في الرجل ،وان لم يكن له آباء لهم شرف .وفي المحكم وقيل :المجد كرم الآباء فقط ،وقيل :المجد كرم الفعال ،وقيل :اذا قارن شرف الذات حسن الفعال سمي مجدا ه .وذلك من كمال الفضل ،فما يعطف عليه من أفعال الفضيلة ،والصفات الجليلة ،قد يعد من التفنن كقول

كقول النابغة الجعدي حين اجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم من قصيدته :

بلغنا السما مجدا وجودا وسؤددا وانا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : الى أين يا ابن أبي ليلى ؟ فقال : الى الجنة بك يا رسول الله ، فقال عليه السلام : الى الجنة إن شاء الله . والحرة - بضم الحاء - الكريمة من النساء ، والحرة أيضا ضد الأمة ، تجمع على حرائر على غير قياس ، وهو جمع شاذ . قال الشيخ مرتضى : ومنه حديث عمر قال للنساء اللاتي كن يخرجن الى المسجد : لأردنكن حرائرا ، أى لألزمنكن البيوت فلا تخرجن الى المسجد ، لأن الحجاب انما ضرب على الحرائر دون الاماء . قال شيخنا - يعني ابن الطيب - نقلا عن المصباح : جمع الحرة حرائر على غير قياس ، ومثله شجرة مرة وشجر مرائر . قال السهيلي : ولا نظير لهما ، لأن باب فعلة يجمع على فعل ، مثل غرفة وغرف ، وانما جمعت حرة على حرائر لأنها بمعنى كريمة وعقيلة ، فجمعت كجمعها هـ . والاشراف جمع شريف ، وقد يدعي مدع أن الاشراف جمع شرف محركا ، بمعنى الشريف . قيل للأعمش : لم لم تتكثر عن الشعب ؟ قال : كان يحتقرني ، كنت اتيه مع ابراهيم فيرحب به ، ويقول لي : اقعد ثمّ أيها العبد ، ثم يقول :

لا نرفع العبد فوق سنته ما دام فينا بأرضنا شرف

أى شريف . وقيل : الشرف محركا جمع لشريف أيضا ، ويجمع الشريف أيضا على شرفاء ككريم على كرماء . والشرف المجد ، أو لا يكون الا بالآباء ، أو علو الحسب قاله ابن دريد ، وذكره صاحب القاموس . وفي الكواكب الدرية للشيخ نجا الابياري رحمه الله :

ولم يجئ افعال في جمع فعيل من سالم الا شريف ويديل
كذا فنيق ويكيم وبرى مع مليح ونصير وقوى
مع يتيم وطوى ونقير قمير أيضا ونضيج وشرير
شهيد هم مع أصيل وكمي كذا مشيج وحبيب فاعلم

والتأييد : القوة والنصر ، ومنه قوله تعالى (اذ أيدتك بروح القدس) وقرئ (آيدتك) من المؤايدة ، أى قويتك . وفي حديث حسان بن ثابت (أن روح القدس لا يزال يؤيدك) أى يقويك وينصرك . والتقوى اسم من الوقاية . وأصله (وقيا) فالتاء بدل من الواو ، والواو بدل من الياء . وقال ابن سيده : التقوى أصله (وقوى) وهي (فعلى) من وقيت اهـ . وحاصل معنى التقوى : اجتناب وامتثال في ظاهر وباطن ، وذلك سبيل الولاية ، والتحصيل على التصريف في الكون . ولمقام التقوى درجات معروفة عند العارفين من أهل الأسرار وأهل الانوار ، من ملامتية وغيرهم ، تحققنا بعددها بما فتح الله به من معرفة اصطلاح الشيخ الاكبر في فتوحاته ، تبرعنا

تبرعنا ببيانه في كتابنا (الاجادة على الافادة) لدى قول سيدنا رضي الله عنه : والله ما قطع مقام التوبة الذى هو أول مقامات السلوك ، فلا نطيل بذكره في هذا المقلم ، ولربما تعرضنا لذلك فيما ينجر له الكلام في تتبع كلام الناظم أبقى الله حرمته بتوفيق الله في شرح هذا النظام . والعفاف هو والعفافة والعف بفتحهن كالعفة بالكسر : الكف عن الحرام ، كما في الصحاح . وفي القاموس : هو الكف عما لا يحل ولا يجمل ، وقيل : كما في شرحه عن المحارم والأطماع الدنية . قال ذو الاصبع العدواني :

عف يؤوس اذا ما خفت من بلد هونا فلست بوقاف على الهون

الى أن قال مع المتن : وهي عفة وعفيفة تجمع على عفائف وعفيفات ، يقال : العفيفة من النساء السيدة الخيرة ، وامرأة عفيفة عفة الفرج اهـ. عائشة : علم على والدة الشيخ رضي الله عنه ، سميت بذلك تفاؤلا بالعيش ، كما هي عادة العرب في اختيار الاسماء وانتخابها للمسميات . وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول مما اتزن :

تفاءل بما تهوى يكن فلقلما يقال لشيء كان الا تحققا

أو سميت بذلك تيمنا باسم الصديقية رضي الله عنها ، فان للمسمى نصيبا من الاسم ، كما أن للاسم نصيبا من المسمى كما هنا . ولا يستبعد قصد تسميتها بهذا الاسم الشريف الا من جهل مقاصد العلماء في أقوالهم وأفعالهم ، فلابد من وجود مثل هذا القصد لدى تسميتها عند والديها ، لكونها من بيت علم مجيد ، وقصر في قرية عين ماضي مشيد . ويعجبني أنشودة الولي الصالح أبي المواهب سيدى العربي بن السائح رحمه الله في زوجته السيدة عائشة رحمها الله :

وريم رمت قلبي بأسهم لحظها فلم تخطه اذ لم تكن عنه طائشه

مناي من الدنيا موت صبابة لديها وشوقا نحوها وهي عائشه

فوالدة الشيخ رضي الله عنهما اسمها عائشة ، وهي بنت الولي الصالح أبي عبد الله سيدى محمد ـ ضما ـ بن السنوسي اسما ، التجاني نسبا ، الماضوى موطنا . فالتجاني نسبة الى قبيلة معروفة بالصحراء بتخفيف الجيم وتشديدها ، وهي بناحية عين ماضي . وذكر بعضهم أن أصلهم من المغرب من مدشر تجينة من قبيلة بني حسن المشهورة ، واليهم نسب الشيخ رضي الله عنه بمصاهرة جده الذى انتقل اليهم ، وقيل : ان الجد المنتقل انتقل من تجينة المشار لها ، فلذلك يقال في نسبته (تجاني وتجيني) وفي النسبة الأخيرة كنت قلت بالحروف المعجمة :

شيخ بتجين شيخي يفي بتزبين شيني

فغي يقيني يقيني خفى ذنبي بزيني

وقد الناظم ـ زاد الله في معناه ـ أم الشيخ رضي الله عنه في الذكر تبعا للجواهر وغيرها من كتب الطريقة ، وقد جعل صاحب البغية ذلك من

من قبيل التأدب بآداب السنة لدى قول المنية :

ما أنجبت خود من الغواني في كل ما مضى من الزمان
كمثل أم شيخنا الرباني عائشة الطاهرة الحصان

قائلا : ففي صحيح مسلم من رواية جرير عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال : جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم قال : من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أبوك) الحديث ، وفيه التصريح بتقديم حق الأم في البر ، فكان من الأدب تقديمها في الذكر في مثل هذا المقام . توفيت رحمها الله مع زوجها والد الشيخ رضي الله عنه في يوم واحد بالطاعون سنة ست وستين ومائة والف ، ودفنا معا في عين ماضي ، وقبرهما هناك معروف مقصود للزيارة . وقد وصفها الناظم ـ أبقى الله حرمته ـ بالطاهرة الجنان ، أى القلب ، اشارة الى اتصافها بما أمر الله به نبيه عليه السلام من قوله تعالى (وثيابك فطهر) أى طهر قلبك ، واجتنب هنا وصفها بالحصان كسحاب ، بمعنى العفيفة الذى وصفها به ناظم المنية ، مع كونه حذا حذوه في هذه الترجمة في جل ما ذكره ، نفورا من التلميح لقضية الافك التي تقشعر الجلود من سماع رمي أم المومنين الصديقية رضي الله عنها بها ، حتى ان عادة ملوك مغربنا ـ رفع الله منارهم ، وأشرق في الغياهب أنوارهم ـ في سرد صحيح الامام البخارى اذا وصلوا لترجمة الافك تركوا سردها بالكلية ، وسردوا ما قبلها وما بعدها من التراجم ، اظهارا للتأثر الحاصل لهم مما نسب بالباطل لهذه السيدة رضي الله عنها . ولقد كان رضي الله عنها بعد ما برأها الله من ذلك الافك العظيم تبغض في الله كل من خاض فيها . وبلغها رضي الله عنها عن سيدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه أنه يميل مع من مال للخوض فيها ، ولم يدافع عنها ، فوجدت في نفسها عليه ، وقد استشعر منها المؤاخذة عليه ، فقال متبرئا من ذلك الرمي :

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثى من لحوم الأرامل
فان كان ما قد قيل عني قلته فلا رفعت سوطي الى أنامل

وعندي هنا وقفة في هذا الموقف : فان قضية الافك مذكورة في القرآن ، وقد اشتملت على أسرار : منها التأسي بها ، ونزول الآية المنوطة بها ، والتأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم في مثل هذه القضية ، ومعرفة الأدب اللائق بالمقام في مخاطبتها ، ومعاملة الرسول لها ، وما فعله والداها معها ، وظهور نفاق من خاض في قضيتها ، وما جرى لها ، وغير ذلك مما ينبغي الاطلاع عليه ، مما يزداد به المومن الموفق محبة في جانبها . فالأولى هو سرد القضية ، وعدم الاعراض عنها ، اللهم الا أن عقول الملوك ملوك العقول قد تقضي بترك السرد لحضور العامة بالمجلس الشريف

الشريف فلا يفقهون حديثا ، ولذلك قد استحسن بعض العلماء ترك سرد البخارى في المجامع العمومية ، خوفا على العامة من الفتنة وفهم غير المقصود ، حتى قال بعض العارفين : ان سرد البخارى تترك الديار بلاقع ، رزقنا الله حسن الادب ، ورفع عنا حجاب الجهل المؤدى للعطب ، آمين . وقول الناظم (من شيدت) عطف بيان من عائشة ، بل بدل منها ، أو من بمعنى التي خبر لمبتدأ محذوف . وشيدت هنا بمعنى أشادت ، أى رفعت وطولت ، ومنه قوله تعالى (في بروج مشيدة) في احدى التفسيرات المنوطة بذلك . والمعالم جمع معلم كمقعد ، ما يستدل به على الطريق من الأثر ، ومنه الحديث (تكون الارض يوم القيامة كقرصة النقي ليس فيها معلم لأحد . ومعلم الشيء أيضا مظنته ، ويصح أن يكون مصدرا ميميا للعلم ، وبكسر اللام الذى هو عين الكلمة اذا راعينا فيه أنه ظرف مكان من علم . والمعنى على الثلاث أنها رضي الله عنها شيدت وطولت ورفعت ما يستدل به على الايمان ، أو رفعت علم الايمان ، ومحل الايمان . والمقصود من الايمان مجموع الدين ، وهذا الأمر حاصل منها ، لكونها قد أتت بالعالم النحرير ، فالفاء تعليلية . ومعنى أتت هنا ولدت العالم غير الجاهل ، ولن يتساوى عالم وجهول ، والله يقول : (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) . والنحرير بكسر النون معناه : الحاذق الماهر العاقل المجرب ، المتقن الفطن ، البصير بكل شيء ، كما في القاموس . والمشايخ كمعايش ، بالياء لا بالهمزة جمع لمشيخة ، لا جمعا لشيخ ، ومشيخة جمع لشيخ ، وهي بفتح الميم وكسرها وسكون الشين وفتح التحتية وضمها ، وبفتح الميم وكسر الشين . وقال القزاز : لا أصل للمشايخ في كلام العرب . وقال الزمخشرى : المشايخ ليست جمعا لشيخ ، وتصلح أن تكون جمع الجمع . والشيخ في اللغة : من استبانت فيه السن ، ومنه قوله :

زعمتني شيخا ولست بشيخ انما الشيخ من يدب دبيبا

وقيل هو بمعنى الجهل ، ومنه : مالك من شيخك الا عمله ، وقيل : الشيخ : هو ابن الخمسين ، أو احدى وخمسين الى آخر عمره ، أو من الخمسين الى الثمانين . والمراد به المرشد المفيد الصالح للأخذ عنه ، فيكون اماما يقتدى به . وأول شيخ ظهر في الوجود أبونا آدم عليه السلام ، فانه قام للانبياء بالاذن الخاص للخواص ، حيث قال الحق له (يا آدم أنبئهم بأسمائهم) وقد رام ابليس اللعين أن يكون شيخا لآدم وزوجه حين أدلى لهما بغرور قال : (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) فقام بارشادهما بغير اذن له في الدلالة على ما ينفعهما ، فقد تصدر للمشيخة بغير اذن فطرد . وهاكذا الشأن فيمن تصدر بنفسه للتلقين ، فهو مطرود لعين . وقد عرف بحق المشيخة العارفون فقدروا قدر المستفاد منه ، حتى عدّ منهم الحي والميت ، وتقدم

وتقدم

وتقدم لنا قول العارف :

وكل من أخذت عنه علما أو أدبا فهو امامي حتما

وبما كررناه اتضح ما قررناه ، فلنكتف بهذا القدر هنا . وقد وصف الناظم المشايخ بقوله (ذوى التنوير) ليخرج أرباب الحظوظ النفسانية ممن لا شيخ لهم ، فيكون شيخهم فيما انتحلوه الشيطان ، ولذلك قالوا : من لا شيخ له فالشيطان شيخه . ثم قال الناظم خلد الله ذكره في الصالحين :

من الهمام الصالح الرباني محمد ذى الفتح والتفاني

والحلم والتقوى مع العفاف والزهد والورع والانصاف

الهمام كغراب : الملك العظيم الهمة الذى اذا همّ بأمر فعله لقوة عزمه ، وهو أيضا السيد الشجاع السخي خاص بالرجال ، ولا يكون في النساء . وها هنا مستلحة أدبية انتقادية في لفظة همام ، قد ذكر العلامة البلكرامي الهندى رحمه الله في كتابه (سبحة المرجان) في ترجمة التعمية من أنواع البديع استخراج اسم همام من قوله تعالى (يعلم ما بين أيديهم) فقال : يعني يعلم لفظة ما بين أيدى لفظة هم ، فحصل همام ، كما استخرج اسم هود من قوله تعالى (وما من دابة الا هو آخذ بناصيتها) فقال : ناصية دابة د وآخذ بها هو فحصل هود ، واستخرج أيضا اسم كافي من قوله تعالى (واصطفيتك لنفسي) يعني اصطفيت حرف الكاف لنفس الياء فحصل كافي ، ونحو ذلك مما ذكره من هذا الباب . ولي عليه في ذلك تنكيت ، فان هذه التعمية ، وان كانت فيه مستملحة أدبية ، ولكن فيه ما لا يخفى من تحويل الكلم عن مواضعه ، فلا ينبغي استخراج مثل هذا من كلام الحق ، سيما ولا ارتباط له مع موضوع الكلام ، ولا فائدة تستقل بهذا الاستنباط العقيم عند ذوى الافهام ، والله الموفق . والصالح ضد الفاسد يوصف به من استقامت سيرته ، وطهرت سريرته ، وفي الحديث (ألا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب) . والرباني نسبة للرب على غير قياس ، ويعني به المنتسب للحق بين الخلق ، فأعماله وأقواله كلها لله بالله في الله .
ومحمد ذى الفتح ، هو اسم والد الشيخ رضي الله عنه ، ومقصوده بذى الفتح فتح الميم ، وهو الاسم محرف عن ذى الضم ، جرت التسمية به على ما به من التحريف غالبا عند من تعددت لديه الاولاد ، تكثيرا للاسم الشريف . ولا شك أنه - رعاه الله - قصد بهذا الوصف أيضا كون الموصوف من أصحاب الفتوحات التي هي عبارة عن رفع الحجاب عن الفائز بها ، حتى يرى الباطن ظاهرا ، ولا يلتبس عليه الباطل بالحق ، فيكون صاحب معرفة بالله ، غارفا من بحر أسرار نبيه عليه السلام ، مع الكشف له عن خفايا النفوس ، وما في العالم من خفي ومحسوس ، ونحو ذلك مما يطمئن به صدره ، ويرتفع به عند الحق قدره ، وقد لا تحمل آنية بعض المفتوح عليهم ما

ما يتجلى بـه الحق عليهم ،حتى قال قائلهم :

ان المفتوح هو الراحات أجمعها وهو العذاب فلا تفرح اذا وردا

والمراد بالتفاني الغيبة عن غير ما سوى الحق ،وأداء ما يطالبـه به الحق ،ومعنى هذا الوصف السلوك التام بالوصول لاعطاء الحق حقه ، والخلق ما استحقه ،وهو من المقامات التي لا تنال الا بالرسوخ في حضرة الارث النبوى بموهبة الحق لبعض خاصة أصفيائه .وقد يتجلى الحق لبعضهم بما لا يتكيف حتى يرى الحق بالحق ،ويتصرف بـه في الخلق .ومنهم من تغيب صفاته وذاته بما تجلى بـه عليه ،فيشطح بما يلام عليه في حضوره بعد الغيبة ،وصحوه بعد سكره ،فيكون تفانيه في الحق محمودا ان أعطى الحق حقه ،وان حافظ على المقام لا يصدر منه ما يوجب الملام ،فيكون في حاله ومقامه ومقاله على حد ما قيل :

ومحجوبة الحسن محبوبة	ولا تألفن سوى الفها
اذا ما تجلت على عاشق	وأهدت اليه شذا عرفها
تغيب الصفات وتفنى الذوات	بما أبرز الحسن من لطفها
فان رام عاشقها نظرة	ولم يستطع لـعلا وصفها
أعارته طرفا راها بـه	فلم يرها بسوى طرفها

فكان والد الشيخ ـ قدس سره ـ من المتمكنين في هذا المقام طبق ما يشم من أحواله العاطرة الانفاس ،ويقضي به المقام الذى عرف بـه بين أفاضل عصره الذين عرفوه بين الناس .ثم وصفه الناظم أيضا بذى الحلم ، وهذا الوصف من أخلاق الحق الذى اتصف بها ،وأمر خلقه بالتخلق بها . فالحلم من أوصاف الحق ،ويتصف بـه العارف بين الخلق ،فالحلم في حق العبد بمعنى الاناة والعقل ،وضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب . ويجمع على أحلام وحلوم ،فهو أحد ما جمع من المصادر .وفي القاموس وشرحه منه قوله تعالى (أم تامرهم أحلامهم بهذا ؟)قيل معناه :عقولهم ،وليس الحلم في الحقيقة العقل ،لكن فسروه بذلك لكونه من مسببات العقل . وتقدم لنا الكلام على التقوى والعفاف ،ولم يبق الكلام الا في الزهد والورع والانصاف .

فوالد سيدنا رضي الله عنه من أصحاب هذه المقامات ،وله من ذلك رفيع الدرجات .فالزهد اخراج حب الدنيا من القلب ،وهو شيء صعب على النفوس ،لا تقدر على أن تحمله الا برياضة أو نظرة ينفذ سرها في باطن العبد ،فيزهد في الدنيا .ويكفي في التنويه بشأن الزهد أنه يورث حب الحق والخلق ،بمقتضى (ازهد في الدنيا يحبك الله ،وازهد فيما في أيدى الناس يحبك الناس)وقد حصل والد الشيخ رضي الله عنه على هذين المزيتين ،فأحبه الخلق والحق ،فكان محبوبا بين قومه بما عرفوه منه من رسوخ القدم في الولاية ،وما غرفوه من أسراره في طريق الهداية .

وأما

وأما الورع، وهو ترك ما لا بأس خشية الوقوع به، فيما لا بأس به، وهو من أخلاق المستبرئين لدينهم وعرضهم، كما نبه عليه صلى الله عليه وسلم بقوله (الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه) والمستبرئون لدينهم وعرضهم لا يقدمون على أمر حتى يعلموا حكم الله تعالى فيه، فلهم مزيد علم على غيرهم فيما يعملون وما لا يعملون. فعملهم عن علم، وتركهم للشيء منهم عن علم، فهم مأجورون في الفعل والترك. ولوالد الشيخ رضي الله عنه تمكن تام في هذا الوصف الذى صار من أخلاقه، حسبما وصفه قد بذلك من عرفه وشهد له به من أهل الفضل من به وصفه. وأما الانصاف الذى هو الخروج عن حظ النفس في مقام يقضي عليها الوقوف معه، ونحو هذا مما يدل على فضل المتصف به. فلهذا السيد رحمه الله الشفوف على غيره فيه، بحيث كان بالمنزلة التي يعطي فيها لكل ذى حق حقه، ولا يقف مع ما تقتضي النفس به في الانتصار لها. وقد قالوا ½: ان المنصف لا يوجد له مع انصافه عدو، وغير المنصف لا يبقى له حبيب. وقد كان أبو المواهب الولي الصالح سيدى العرب بن السائح رحمه الله كثيرا ما ينشد في مجمع اخوانه وأحبابه أبياتا بهذا المعنى : ؟

وبهذا الوصف مع ما قبله قد امتاز والد الشيخ رضي الله عنه. قال العلامة ابن المشرى : فأما والده رضي الله عنه، فهو السيد محمد بالفتح بن المختار، فكان عالما، متبعا للسنة، ذاكرا مدرسا للحديث والتفسير، وكانت تأتيه الروحانية يراودونه على قضاء حوائجه فامتنع وطردهم وقال لهم : اتركوني بيني وبين الله، لا حاجة لي بكم، فذهبوا وتركوه. وكان متعلقا بالله رضي الله، وكان له بيت ذكر في داره. هاكذا حكى لي عنه شيخنا رضي الله عنه. ودارهم اليوم معلومة في القرية بالصلاح والبركة من أول أجداده النازلين في قرية عين ماضي الى الآن عمرها الله. وتوفي عام ستة وستين ومائة وألف. اهـ باختصار. وقد عظم قدره في قومه، زيادة على ما تقدم به أمامهم في الفضل بعلمه وحلمه، وذلك من تمكنه بمقام الولاية الذى أقامه الله فيه، واقتدى به في ذلك سائر بنيه، وفي الصف الأول منهم سيدنا الشيخ رضي الله عنه. ثم قال الناظم - أبقى الله حرمته :

نجل الكريم العارف المختار ذى الفيض في العلوم والأسرار

الكريم هو الذى يجود بلا سؤال، ويستلفت الأنظار الى كرمه ليسألوه، فيمنحهم بما لديه، يدل عليه قول الله تعالى (ما غرك بربك الكريم) فيستلفت نظره الى كرمه، فيقول : يارب : كرمك. وفي مجازاة الكريم من

من النوع الانساني يقول بعضهم، وقد أفرط:

مجازاة السماحة دار حقد   وأمن من عذاب يوم بؤوس
وما نار بمحرقة كريما   ولو كان الكريم من المجوس

والعارف بالله هو الذى عرف ما أمره الله به فامتثله، وعرف ما نهاه عنه فاجتنبه، ثم ترقى في درجات المعرفة به على قدر ما لديه منها في مقامات اليقين، ودخوله لحضرة الاحسان، بحيث يعبد الله حتى كأنه يراه. ثم يترقى في هذا المقام على قدر ما لديه من وراثته لمتبوعه من الانبياء عليهم السلام. ومن العارفين من يصل الى درجة يتحمل فيها جميع ما ينزل في وقته من المصائب على الخلق ولا يتزلزل قدمه بما لديه من الثقة بربه، فهو كالحيوان المسلوخ وهو حي، كل ما نزل عليه يتألم به، ويصبر على تحمله. والمختار: اسم جدّ الشيخ رضي الله عنه، فهو اسم فاعل من الاختيار، أو اسم مفعول لحظ فيه من سماه معنى الصفة، فهو مختار من قومه، أو أهل عصره، فسبقت له النظرة من والده الذى سماه بهذا الاسم، وقد وصفه الناظم ــ أبقى الله حرمته ــ بأنه صاحب الفيض الذى يسقي غيره بما أودعه الله فيه. (والفاء) من قوله (في العلوم) على بابها، أو بمعنى الباء، فهو ذو فيض بالعلوم والأسرار، أو ذو فيض فيها. والعلوم جمع عليم، جمع لتعدد أنواعه، ولا تحصر في علم، ولذلك أمر أعلم العلماء صلى الله عليه وسلم من طلب الازدياد من العلم فقال تعالى مخاطبا له (وقل رب زدني علما) فاذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أمر بطلب الزيادة مع ما لديه من العلم فغيره من باب أولى، لا يكتفي بما لديه، ولا يزال الرجل عالما ما طلب العلم، فاذا ظن أنه علم فقد جهل. (والأسرار) جمع سر، وهو من نتائج العلم، وقد يطلق السر على العلم اللدني الذى لا يفشى الا لأهله، ومن باح به يخشى عليه، كما يقول قائلهم:

بالسر ان باحوا تباح دماؤهم   وكذا دماء البائحين تباح

وهو من جواهر العلوم، ومنه ما أشار له زين العابدين رضي الله عنه في قوله:

يا رب جوهر علم لو أبوح به   لقيل أنت ممن يعبد الوثنا
ولا ستحل رجال مسلمون دمي   يرون أقبح ما يأتونه حسنا

وقد يطلق على خواص الاسماء والحروف ونحوها، مما يتصرف به من ناله اذنا خاصا في ذلك، وهذا قليل الوجود عند مدعيه، وهم كثيرون. وقد حذر الشيخ رضي الله عنه من الخوض في مثل هذه الأسرار، لكونه لا يكون الا عند أمنائه الذين لا يبوحون به، حتى لخاصة أبنائهم، ولقد قال من صدق في ذلك:

ومستخبر عن سر ليلى رددته   بعمياء عن ليلى بغير يقين
يقولون خبرنا فانت أمينها   وما أنا ان خبرتهم بتمين

وقد

وقد كان جد الشيخ رضي الله عنه السيد المختار المذكور ممن حصل على السر الخاص، بين الخواص، مع تحفظ تام على صيانته لغير أهله، بل كان اشتغاله بنفسه مع اقباله على ربه لم يبق له مع ذلك التفاتا للتصرف بذلك بما أراه الحق من وجه الحقيقة التي تعشقها في حضرات الأنس بربه رحمه الله. ثم قال الناظم أبقى الله حرمته:

نجل السرى نخبة الأخيار أحمد ذى الأذكار في الاسحار

هذا السيد شهد له من عرفوه بأنه كاسمه أفعل تفضيل من الحمد، فكان نخبة الاخيار، يعني من خيرة أهل الفضل والدين والعمل بالعلم في عصره، كان كثير الذكر، مستغرقا فيه الفكر، معمرا أوقاته فيه، خصوصا في أواخر لياليه، فانه كان يتحين الاسحار، يكثر فيها الأذكار، لكونها أوقات المناجاة الخاصة، وفيها ينظر الحق لعباده بعين الرضى، ويفيض عليهم من بحور آلائه ما يملأ الفضا، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

ثم قال الناظم:

نجل المعظم الهمام العالم سيدنا محمد بن سالم

بهذا الجد الذى ختم به الناظم الترجمة اشتهر الشيخ رضي الله عنه، فهو يعرف بأحمد بن سالم. وقد بلغنا عن ولد هذا السيد جد الشيخ الذى هو محمد بن سالم أنه موساوى المقام، وهذا المقام لا يصله الا الأفراد من الأولياء المحمديين المحدثين، وهذا السيد الذى هو الرابع من جدود الشيخ رضي الله عنه هو أول من نزل في قرية عين ماض من أجداده الكرام. وقد بلغني أنه كان استوطنها لاقبال قومها عليه في مروره عليها في ركب الحج المغربي، فلم يرجع مع الركب حيث أقام هناك لنفع العباد بما آتاه الله من العلم الظاهر، والعلم الباطن، فانتفع على يده جم غفير، ثم لازم الخلوة بها، واذا خرج من داره الى المسجد يستر وجهه على الناس رفقا بهم. ولا زلت أسمع أن أصل الشيخ رضي الله عنه من قبائل المغرب، ولا أدرى هل هو من تجينة مدشر من مداشر قبيلة بني حسن، أو من التجاجنة مدشر من مداشر قبيلة الشاوية. ولوالد هذا السيد المنتقل لقرية عين ماض، وهو السيد سالم هيمنة كبرى بالسر الذى انفرد به بين الخاصة من العارفين بالله، رحم الله الجميع. ولقد اقتصر الناظم ـ أبقى الله حرمته ـ على هؤلاء السادة من عمود نسب الشيخ رضي الله عنه، لاشتهار الشيخ بابن سالم، فلم يرد أن يزيد على هذا الجد المعظم. وقد ذكر في الجامع العلامة ابن المشرى رحمه الله عموده الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال في التعريف به رضي الله عنه: هو علم الطريقة، وبحر الشريعة والحقيقة، مولانا أبو العباس أحمد بن مولانا محمد المكني بن عمرو بن المختار بن أحمد بن محمد بن سالم بن أبي العيد بن سالم بن أحمد الملقب بالعلواني بن أحمد بن علي بن عبد الله

ابن

ابن العباس بن عبد الجبار بن ادريس بن آدريس بن اسحاق بن زين العابدين بن أحمد بن محمد بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. فهذا نسبه الموجود في العقود، ولكن لم يعول الشيخ رضي الله عنه عليه، وان كان محققا عند آبائه، حتى سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن نسبه وحققه له. سمعته يقول رضي الله عنه: سألت سيد الوجود صلى الله عليه وسلم عن نسبي: هل أنا شريف أولا ؟ فأجابه صلى الله عليه وسلم بقوله: أنت ولدى، وكررها ثلاثا. فمن حين سمع تحقيق نسبه من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم صرح بالشرف وجزم به، وذلك لتحقيق نسبه في نفس الأمر، لأن سيد الوجود صلى الله عليه وسلم أخبره يقظة لا مناما. انتهى كلامه رحمه الله.

قال العارف الجيلي صاحب (الانسان الكامل) في تأليفه (مراتب الوجود الاربعينية) ما نصه: وبعد: فان أولى ما يعتني به العقلاء، وأعز ما صرف العمر فيه الفضلاء، هو العلم بالله تعالى، وانه لكثرة اتساعه، وعظم شياعه، لا يكاد المرء يبلغ من تداركه مقصودا، ولو كان بجميع الامدادات ممدودا، وان القوم المشار اليهم بهذا العلم - رضوان الله عليهم - انما أخذوا منه طرفا، كل على قدر قابليته، وقبول الفيض المقدس الأقدس من حضرة التجلي، والتحقيق بحقيقة الاتصاف والتحلي، مع التأييد الالهي بروح القدس لدى الالقاء والتلقي، حتى انهم مع دوام النفحات، وتواتر الخيرات، لم يزالوا يطالبون هذا العلم من بعضهم بعضا، ويسيحون في الارض بالوقوع على رجل يفيدهم فيه مسألة طولا وعرضا، ولهذا قال الجنيد: لو علمت أن تحت أديم السماء علما أشرف من علمنا هذا لرحلت اليه، تنبيها على شرف هذا العلم، وانه مما ينبغي للمريد أن يرحل اليه، بل يجب عليه. وقال الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه لتلامذته: تعلموا هذا العلم، فان جذبات الحق قلت في زماننا، يريد الجذبات للمجذوبين، يعني المجذوبين قلّوا في الزمان. وسبب قلتهم عدم تعرض أهل الزمان، لنفحات الرحمان، وان شئت قلت: عدم التحلي بقبول فيض التجلي. وقد يكون قصد الشيخ بقلة الجذبات قلة ظهورها على أهل الزمان، لا لكونها قليلة في نفس الأمر بالنسبة الى ما مضى من الأزمنة، لأن الله تعالى لم يزل متجليا بجميع تجلياته، مفيضا على خلقه بمقتضيات أسمائه وصفاته. ولقد بلغني عن شيخ الشيخ اسماعيل الجبرتي رضي الله عنه ونفعنا به، أنه قال يوما لبعض اخواننا من تلامذته: عليك بكتب الشيخ محيي الدين بن عربي، فقال له التلميذ: يا سيدى، اني رأيت أن أصبر حتى يفتح الله عليّ به من حيث الفيض، فقال له الشيخ: ان الذى تريد أن تصبر له هو عين ما ذكره لك الشيخ في هذا الكتاب. هذا كلامهم رضوان الله عليهم للتلامذة والاخوان، انما

انما هو لتقريب المسافة البعيدة اليهم، ولتسهيل الطريق الصعب عليهم، لأن المرء قد ينال بمسألة من مسائل علمنا هذا ما لا يناله بمجاهدة خمسين سنة، وذلك لأن السالك انما ينال ثمرة سلوكه وعمله، والعلوم التي وضعها الكمّل من أهل الله تعالى هي ثمرة سلوكهم وأعمالهم الخالصة. فكم بين ثمرة عمل معلول وثمرة عمل مخلص، بل علومهم من وراء ثمرة الأعمال، لأنها بالفيض الالهي، والوارد على قدر وسع قلوبهم، وكم بين قابلية الكامل من أهل الله وبين قابلية المريد الطالب ما قصدوه من وضع المسألة في الكتب وعلمها استوى هو ومصنفه في معرفة تلك المسألة، فنال بها هو ما نال المصنف، وصارت له ملكة مثل ما كانت للمصنف. وهاكذا كل مسألة من العلوم الموضوعة في الكتب، فان الاخذ بها من الكتب اذا فهمها وميزها يصير كالآخذ لها من المعدن الذى اتخذ منه مصنفها. وما ورد من بعض أهل الله تعالى من منع بعض التلامذة عن مطالعة كتب الحقيقة، لأن قاصر الفهم لا يخلو اما أن يتأول كلامهم على خلاف ما أوردوه فيستعمله فيهلك ويضيع العمر في تصفيح الكتب بلا فائدة، فنهي الشيخ لمثل هذا عن مطالعة هذه الكتب واجب ليشتغل بغيرها مما فيه نفعه. وأما من كان ذا عقل ذكي، وفهم وتمييز جلي، وايمان قوى، يأخذ من كتبنا كل مأخوذ، وينال منها كل مقصود. ولقد رأيت في زماننا طائفة كثيرة من كل جنس من أجناس العرب والترك والفرس والهند وغير ذلك من الاجناس، كلهم بلغوا بمطالعة كتب الحقيقة مبالغ الرجال، ونالوا منها مقاصد الآمال. فمن أضاف بعد ذلك الى علمه فضلة سلوك واجتهاد صار من الكمّل، ومن وقف بعد علمه صار من العارفين. وسبب ذلك أن المسائل الموضوعة في كتب أهل الله انما تفيدك بالوضع علم التوحيد تصريحا، وبالعبارة والاشارة عين التوحيد كناية وتلويحا، وبضرب الأمثال تفيدك حق التوحيد رمزا وتلميحا. فقد يكون بعض الكتب مشتملا على هذه الهيئة كلها، فيدخل بك الى علم اليقين، فان عملت بمقتضاه، ولازمت مطالعة ذلك الكتاب على حكم ذلك العلم، فانه ينتقل بك الى عين اليقين، ثم يرقيك الى حق اليقين ان أعطيت نفسك لذلك العين على حكم ما ذكره لك المؤلف، والا فهو محلك ومنتهاك، فاذا بلغت الى حق اليقين انقطعت فائدة الكتب عنك، وهذا ما تبلغ بك الكتب اليه ان كنت شهما، وحزت تمييزا وفهما. وأما حقيقة اليقين فلا تستفاد من الكتب بنوع من الانواع البتة، لانه في الأصل لا يدخل تحت الافادة الكونية بحال، فهو أمر وهبي فوق المدارك العينية والذوقية بمنحة الله تعالى من يشاء من أهله.

ولعلك تقول: ان كان لا بد من الانقطاع بعد فائدة الكتب في آخر الأمر فأنا أتركها في أول الأمر، وأرجع الى ما يرجع اليه، فأقول لك: ان

ان المراتب المشار اليها بعلم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين التي ذكرنا انها منتهى فائدة الكتب لا يكاد الاتصال اليها ، بل ولا الى أولها باجتهادك العمر كله ، فاني قد رأيت صبيانا من أهل الطريقة من اخواننا بلغوا بمطالعة هذه الكتب في الايام القليلة ما لا تبلغه رجال بالاجتهاد الى أربعين سنة ، أو خمسين سنة ، على أنهم قد كانوا سببا لدخول ذلك الصبيان الى الطريق ، ولكنهم لما وقفوا مع سلوكهم ، وصار ذلك الصبيان في مطالعة كتب الحقيقة وفهمها تأخروا عن مرادهم ، وصار الصبيان شيوخا في الحقيقة ، والشيوخ لهم صبيانا ، حتى أنشد منشدهم :

وقد تبنيت ابنائي على شقة   ولا محالة أني وجه كل أب

هذا البيت لرجل من تلامذة شيخنا ، لا نعلم له شيئا من أعمال الطريقة سوى مطالعته لكتب الحقائق ، حتى بلغ من هذا العلم ما سبق به كثيرا من السابقين ، واسمه أبو بكر بن محمد الحكاك ، له نظم كثير ، فمن وقف على ديوان شعره عرف مقداره . وانما أوردت لك هذه الحكايات كلها في ديباجة هذا الكتاب حتى أفهمك قدر هذا العلم ، وعلوّ شأنه ، لترغب في تحصيل هذا الفن الشريف بمطالعة هذه الكتب وممارستها ومذاكرة أهلها حيث كانوا ، فان الرجل منهم قد يفيدك كلمة ما لا تفيدك الكتب كلها في العمر كله ، لأنك لا تاخذ من الكتب الا بفهمك ، والرجل العالم بالله اذا أرادك لفهم مسألة على ما هو عليه أعطاك فهمه فيها ، وكم بين فهمك وفهمه ، ولهذا كانت مطالعة كتب الحقيقة عند المحققين أفضل من أعمال السالكين ، ومجالسة أهل الله مع التأدب معهم أفضل من مطالعة الكتب كلها . فعليك ثم عليك بملازمة الشيوخ الهداة الى الله تعالى ؛ فان لم تجدهم فعليك ثم عليك ~~بمطالعة~~ بملازمة المطالعة في كتب الحقائق ، والعمل بمقتضى علومها ، فانك تصل بذلك الى مقصودك ، وتقع به على معرفة معبودك ، ان شاء الله تعالى .